النعمان بن المنذر

أبو قــابوس

obeikandl.com

obeikandl.com

مشاهير العرب
(١)

النعمان بن المنذر

أبو قابوس

الدكتور عبد العزيز عبد المجيد

الطبعة الخامسة

دار المعارف

obeikandi.com

obeikandl.com

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

١ - الزمان والمكان

نحن الآن فى صيف سنة ستمائة بعد ميلاد السيد المسيح عليه السلام، وقبل ظهور الدعوة الإسلامية على يد الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بنحو عشر سنوات[١] . ونحن نغادر قلب جزيرة العرب متجهين إلى الشمال الشرقى نحو نهر الفرات . وفى طريقنا هذا نجد قبيلة طيئ فى شمالى الجزيرة العربية . فإذا ما نظرنا شرقاً رأينا قبيلة بكر بن وائل الشهيرة، تنتشر بخيلها وإبلها ، وخيامها ورحالها فى الهضاب والمراعى الواقعة الآن غربى بلاد الكويت والبحرين .

ونتقدم من هذا المكان نحو الشمال الشرقى حتى نصير على مسافة أربعين ميلا تقريباً من مجرى نهر الفرات . وهنا نجد أنفسنا على قمة هضبة صخرية رملية . نسير بها فى الاتجاه عينه ، فتقابلنا دروب وشقوق وأخاديد ، وأودية صغيرة هى مجارى المياه حينما تهطل السيول أحياناً مرة فى كل بضع سنوات . لذلك لا نرى فى بطون هذه الأودية إلا قطعاً من الحجارة تختلف كبراً وصغراً ، قد خلفتها السيول ، بعد أن جرفتها أمامها من قمم الجبال والتلال ، وبعد أن جفت مياه السيول .

---

(١) ولد الرسول الكريم سنة ٥٧١ م . وأخذ يدعو إلى الإسلام فى سن الأربعين أى حوالى سنة ٦١٠ م .

ونرى على بطون هذه الوديان الرمليةتجعدات شبيهة بالأمواج ، خلقتها الرياح التى تهب فى اتجاهات مختلفة أثناء السنة . وكثيراً ما نسمع لهبوب هذه الرياح خلال الأخاديد الضيقة والوديان أصواتاً كعواء الذئاب .

ونرى هنا وهناك أكواماً من العشب الأخضر الداكن كأنما لوحته حرارة الشمس ، كما نرى شجيرات جرداء وقفت أغصانها تلوح فى الفضاء ، وبعض ينابيع للمياه تنبثق فى هدوء واستمرار من بين طيات الصخور أو منعطفات الوديان . فإذا ما جاء العصر ، وحانت ساعة الأصيل – بين العصر والغروب – اصطبغ الأفق بطلاء أحمر أو برتقالى ، يخف بالتدريج كلما رفعنا رءوسنا إلى السماء حيث يمتزج بزرقتها . فإذا نظرنا إلى الخلاء حولنا وجدنا السكون قد خيم عليه ، وغطاه ثوب بين الصفاء والظلمة . ونبصر من حين لآخر قطعاناً من الغزلان قد خرجت من مخابئها وكهوفها ، وانطلقت كالسهام متجهة نحو ينابيع المياه طلباً للرى . وكلما تقدم الليل صفت السماء ، وزادت نجومها بهاء وضوءاً ولمعاناً ، حتى يهتدى بها المسافرون ليلا فى معرفة أماكنهم واتجاهاتهم ، ومواقع المنازل التى يقصدونها .

من مرتفع هذه الهضبة نجد الطريق أمامنا مطروقاً بين تلين عاليين ، إنه طريق رملى واسع ، إنه طريق القوافل التى كانت تسلكه ذهاباً وإياباً من قلب الجزيرة وأطرافها الجنوبية والشرقية والغربية إلى الجهات

الشمالية المجاورة لوادى الفرات ، وإلى بلاد فارس الواقعة وراء نهر دجلة . تلك القوافل التى كانت تحمل معها حاصلات الجزيرة العربية من جلود ووبر وأصواف وتمر ورقيق ، ثم تعود محملة بحاصلات فارس والهند من ثياب ، وسيوف ، ورماح وأبسطة وخمور ولآلئ .

ونتقدم فى هذا الطريق حتى نصل إلى تل رملى نصعد فوقه ، ونقف قليلا لنرى وادياً فسيحاً متسعاً ينحدر بالتدريج نحو الشمال الشرقى حتى ينتهى بشاطئ نهر الفرات .

وفى هذا الوادى الفسيح يرى الناظر مدينة كبيرة ، قد ظهر بارزاً من بين دورها قصر فخم البناء ، شيد من الحجر والرخام . تبدو قبابه الرخامية صاعدة فى السماء الزرقاء . وقد أخذت أشعة الشمس تنصب عليها ، فتظهر كأنها بحيرات من فضة مذابة . تلك هى مدينة الحيرة ، عاصمة مُلك المناذرة ، وذلك هو قصر ملكهم .

ويحيط بهذا القصر سور عال مربع ، تقوم عند كل زاوية من زواياه الأربع بناية ، هى برج مرتفع له بوابة كبيرة توصل إلى بناية القصر وكل برج يسمى « مسلحة » ، لأن بها حراساً يحملون السلاح ، ولأن بها سلاحاً كثيراً قد وضع فى مخازنها لاستعماله عند الحاجة ؛ لرد العدو أو الهجوم عليه عند الغزو . وهذه المسالح — والقصر الذى بداخلها — تكوّن قلعة كبيرة تطل على ما حولها من مساكن ، وأسواق ، وضواح ،

وبساتين ، وغابات ، وأحراج ، وأودية . وبين كل مسلحة وأخرى جنود من الفرسان يسيرون على ظهور خيولهم العربية المطهمة ذهاباً وإياباً لا يسمحون لأحد أن يدخل « القصر النعمانى » إلا بإذن من رئيس المسلحة التى بها الباب الذى يريد الدخول منه . وكل باب مخصص لنوع من الناس . فهذا « باب الفرس » لا يدخل منه العرب . وهذا « باب العرب » لا يدخل منه الفرس . وهذا « باب الروم » لوفود الروم وللجيوش التى تخرج إلى بلاد الروم غازية أو مدافعة عن الحدود الرومانية ، وهذا هو « الباب النعمانى » يفتح للنعمان الثالث أبى قابوس ملك الحيرة حينما يخرج للغزو ، أو للصيد ، أو النزهة ، أو السفر إلى بلد بعيد . وحين يستقبل ضيوفه من الملوك والأمراء من أى بلد كانوا .

وعلى برج كل مسلحة وقف جنود بحرابهم وقسيهم ، ينظرون إلى مسافات بعيدة ، ويتطلعون ، ويستطلعون حركات الذاهبين والقادمين خشية أن يكون هناك عدو مغير . وفى وسط الجدار الجنوبى بوابة كبيرة تسمى « بوابة القصر » تفتح عادة طول اليوم يدخل منها أو يخرج أهل الحيرة ومن لهم صلة بالقصر النعمانى من الأمراء أو التجار أو الشعراء أو الجنود . وعلى جانبى هذه البوابة برجان كبيران فيهما يقيم الحرس النعمانى الخاص ليل نهار ، يتناوب رجاله الحراسة . وفيه رئيس الحرس . ومنه تصدر الأوامر إلى سائر رجاله . ورئيس الحرس هذا مسئول أمام الملك

النعمان الثالث « أبي قابوس » نفسه .

ويتفاهم حراس هذا القصر وهم فى البروج بالنفير ، تسمع أصواته تنطلق من وقت لآخر فى نغمات مختلفة قصيرة أو طويلة كأنها لغة الحديث. وبأصوات النفير تصدر الأوامر من البرج الرئيسى إلى الحراس فى الأبراج الأخرى ليقوموا بما يُطلب إليهم من عمل . فإذا كانت قافلة مثلا قادمة من بلاد فارس وصل البريد — يحمله رجل يركب جواداً قوياً يحمل الرسائل من مكان إلى مكان — إلى رئيس الحرس يخبره بقرب وصول هذه القافلة . فيصدر الرئيس أوامره بصوت النفير إلى بعض الحرس الذين فى البرج المجاور لباب الفرس ، لكى ينطلقوا نحو هذه القافلة ليستقبلوها ، ويتقدموها فى سيرها نحو سوق الحيرة . ولا تستطيع هذه القافلة دخول الحيرة ما لم يصل إليها الأمر بالدخول على يد هؤلاء الفرسان الحراس الذين يخرجون من مسلحتهم إليها . ولأصوات النفير نغمات خاصة يفهمها الحراس . وأحياناً يستعمل الحراس فى تخاطبهم الأعلام للإشارة وتبادل الرسائل ، كما يفعل أعضاء فرق الكشافة فى العصر الحديث . ولكن إشارة الأعلام لا تستعمل إلا نهاراً ، وحين يكون الجو صحواً .

وهذه المنطقة التى يحيط بها السور ، وتحيط بها الأبراج أو المسالح منطقة حرام . ولذلك تسمى « الحرم النعمانى » فلا يدخل إليها أحد إلا بإذن كما ذكرنا .

أما خارج هذه المنطقة فتنتشر منازل مختلفة فى علوها ، وقيمة بنائها ، وسعتها ، ومنظرها . بعضها مبنى من الحجر ، وبعضها مبنى من الرخام ، وبعضها من الآجر ، وبعضها من الغاب وسيقان الأشجار . ومنها المرتفع والمنخفض . وفيها الفخم والمتهدم المهمل . وشوارع المدينة ضيقة مهملة . ولكن هناك ساحة كبيرة واسعة تسمى « مناخ القافلة » فيها ينيخ التجار إبلهم ، ويربطون خيولهم ، حيث يقدمون لها العلف والماء ، وعنها ينزلون أحمالهم وبضائعهم ، وعليها يحملون أثقالهم وأمتعتهم . ومن هذا المناخ — مناخ القافلة — ينبعث رغاء الإبل ، وصهيل الخيل ، ونهيق البغال والحمير ، وضوضاء الخدم والرقيق ، وأصوات الهوادج والبراذع وأسرجة الخيل ، وأخلاط من الأصوات الناتجة عن نقل البضائع وإنزالها من فوق ظهور الدواب أو تحميلها عليها . وتنبعث منها روائح الدواب : علفها ، وبعرها ، وروثها ، وأنفاسها .

وقريباً من هذا المناخ ، وإلى جانبه نرى رحبة فسيحة كأنها ميدان ، تقومُ حولها حوانيت ، وفنادق (خانات) . ويرى الداخل إلى هذه الرحبة أزياء مختلفة غريبة أو مألوفة ، يلبسها أقوام لهم سحن ولغات أجنبية . فهذا هندى قد وضع فى عمامته جوهرة لامعة ، وهذا فارسى قد لبس ثياباً مزخرفة بالقصب وخيوط الذهب وتفوح من لحيته رائحة المسك والعنبر ، وهذا رومانى عارى الرأس قد توشح بحرام أحمر أرجوانى ، وهذا

عربى قد تمنطق بحزام يتدلى منه سيفه ، ولفّ حول إبطه اليمنى وعلى كتفه اليسرى ثوباً من الوبر أو الصوف . والكل فى لغط وهرج ، يساومون فى البيع والشراء ، ويتبادلون البضائع وفى ركن من هذه الساحة قامت حلقة من الناس فى وسطها الجوارى البيض والسود : بعضهن لم يتجاوزن سن الرابعة عشرة أو أكبر قليلا ؛ فتيات ناهدات نصف عاريات ، ذوات عيون زرقاء وبشرة بيضاء حمراء ، وشعر أشقر ؛ وثمة أخريات زنجيات فطس الأنوف ، غليظات الشفاه ، لا يبدو فيهن شىء أبيض إلا الأسنان وبياض العيون ، وثمة عجائز متهالكات يمر بهن الزبائن ولا يعيرونهن إلا نظرة عابرة .

وخارج هذه المدينة الصاخبة — الحيرة — قد انتشرت أكواخ من اللبن والطين ذات سقوف من الغاب . وخيام دكناء ظلماء صنعت من الجلود أو الوبر أو الصوف ، زادتها حرارة الشمس قدماً وهلهلة . ويفصل هذه الأكواخ والخيام بعضها عن بعض مجموعات من أشجار التين والكروم ، أو أحراج من النخيل . ولكن الناظر إلى الناحية الشرقية ، على مدى البصر ، يرى الشاطئ الغربى لنهر الفرات . وقد انتشرت على جانبه بساتين النخيل الكثيفة ، يرتفع سعفها فى الفضاء كضفائر الفتيات متمايلة مع الهواء ، وقد تفتحت سباطات النخل عن شماريخ متراصة عليها براعم من طلع نضيد ، بارزة بيضاء كحبات الخرز أو قطرات الندى .

وعلى سيقان النخيل ظهرت حلقات سوداء تفصل ما تحتها عما فوقها ؛ فما تحتها أصفر نظيف وما فوقها أسمر ترابيّ اللون ؛ ذلك لأن مياه الفرات قد ارتفعت أثناء الفيضان إلى مستوى تلك الحلقات ، فى فصل الشتاء وهو فصل الأمطار فى أعالى الفرات .

وفى الفضاء الفسيح يرى الناظر قطعان الإبل والغنم والمعيز ترعى كأنها عاشت فى ذلك المكان منذ خلق الله الأرض ، فهى جزء منه وهو جزء منها . وعلى تلك التلال المنخفضة والرحاب نبتت حشائش بعضها لا يزال أخضر والآخر لم تبق منه إلا جذور صفراء كما نبتت شجيرات وأعشاب شوكية ، وأنواع من الصبار الأخضر الداكن .

وهناك من وراء أحراج النخيل وبين فجواتها تظهر زوارق شراعية تذهب وتجيء فوق مياه الفرات ، وقد انحسرت المياه إلى القاع بعد أن ارتفعت فى الشتاء حتى غمرت جانبيه ، ووصلت إلى أطراف الحيرة فهددتها بالغرق والطوفان، ويرى الناظر كذلك مراكب تسير مزدوجة : كلّ مركبين متجاوران ، وبينهما شبكة يُدليها الصيادون إلى قاع النهر ، ثم يرفعونها محملة بالأسماك . وإلى جانب هذه المراكب والزوارق ظهرت سفينة كبيرة يسيرها رجال يجدفون على الجانبين ، فتعبر السفينة الفرات من شرقه إلى غربه ، ذهاباً وإياباً ، محملة بالإبل والخيل والناس ، إنها المعبر الذى يوصل ما بين شطى الفرات لينقل المسافرين ودوابهم وأمتعتهم .

فإذا ما عدنا إلى الحيرة نفسها، ودخلنا «القصر النعمانى» وسرنا حتى وصلنا إلى «قاعة السمر» رأينا غرفة كبيرة فسيحة الأرجاء. مفروشة بالبسط العجمية، فى جوانبها وأركانها زهريات من الخزف الصينى والفارسى نقش عليها صور ملوك ومغنيات وفرسان. وقد ملئت بالأزهار والرياحين. ويتدلى من سقف القاعة خمس مجموعات من الشمعدان النحاسى الأصفر بكل شمعدان مائة شمعة موقدة. وجدران القاعة مغطاة بالمرايا التى تعكس أنوار هذه الشموع جميعها؛ فتظهر القاعة كأنها أوسع من حقيقتها.

وللقاعة بابان، أحدهما كبير يدخل منه الملك ورجاله وزائروه ويخرجون؛ والآخر صغير فى الجانب الأيسر من جدار الباب الكبير. وقد وقف خارج الباب الكبير وأمامه أربعة حراس، لهم قامات طويلة فارعة. يلبسون ثياباً عربية فارسية مزركشة بالقصب وشرائح الذهب، وعلى رءوسهم عمائم بكل عمامة ريشة بيضاء. وتحت الإبط اليسرى لكل حارس سيف معلق من حزامه، له يد من فضة، وقد قبض الحارس بيده اليسرى على وسط حربة يلمع طرفها المدبب.

أما عصام حاجب النعمان فيقف فى داخل القاعة، قريباً من الملك حينما يجلس، بحيث يسمع كل كلمة يقولها سيده، ويرى كل إشارة تصدر عنه. وموقفه بين الباب الكبير والباب الصغير. وهو

لا يخرج أو يدخل إلا من الباب الصغير .

فإذا ما جلس النعمان جلس على أريكة غطاؤها من الحرير الأحمر، وحشوها من ريش النعام ، وجوانبها مغطاة بصفائح الذهب . وجلس أمامه أكبر وزرائه ويسمى « الرديف » وعلى يمينه يجلس الراوى ، وعلى شمال هذا الرديف مضحك النعمان . وعلى كل جانب من هؤلاء الثلاثة وقف مترجمان أحدهما يجيد الرومية والعربية ، والآخر يجيد الفارسية والعربية . أما عن يمين الملك وشماله فقد وقف خادمان يروّحان له بمراوح من ريش النعام المعطر بالمسك ، وكأنهما فى حركتهما بالمراوح آلة ميكانيكية دقيقة لا تكلّ ولا تمل ، فتتحرك أيديهما حركات منتظمة ذهاباً وإياباً دون خلل أو ارتباك ، وكأنما قد سُمّر كل من هذين الخادمين فى مكانه .

٢ ـ النابغة فى مجلس الجدل

هناك فى ساحة السوق ، وفى إحدى ليالى الصيف المقمرة ، جلس جماعة من أهل الحيرة والأعراب فى شكل حلقة ، وجلس بينهم بدوى أبيض الوجه ، مشرقه . قد جاوز الخمسين من العمر . وقد ارتفع صوته وهو يقول :

ــ لقد قلت له : يا مولاى ، أبيت اللعن :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عنى وشاية ... لمبلغك الواشى أغش وأكذب
ولكننى كنت امرأ لى جانب ... من الأرض فيه مستراد ومذهب
ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم ... أحكمُ فى أموالهم وأقرب
كفعلك فى قوم أراك اصطفيتهم ... فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا
فلا تتركنّى بالوعيد كأننى ... إلى الناس مطلىٌّ به القار أجرب
فإنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وهنا يقف أحد الحاضرين ويصيح قائلا :

ــ أنت المخطئ يا نابغة ذبيان ، وعليك كل اللوم . لقد غمرك النعمان بفضله ، وشملك بعطفه . وجعل منك صديقاً ، تجالسه وتسامره . وكان يؤاكلك فى صحاف من الذهب والفضة ، ويشاربك على أصوات الموسيقى ، وغناء المغنيات . وكان لا يحجبك عنه حاجب ، ولا يرد لك حاجة . ولقد غمرك بعطاياه ومنحه كلما قدمت عليه ، وأنشدته قصيدة . فكنت تعود إلى قومك بالعطاء الكثير ، من المال والإبل والجوارى . والآن إنك لم تحفظ جميله عندك ، ولم تقدر نعمته ، ولم تصن حرمته ألست القائل فى وصف زوجته « المتجردة » تتغزل ، وتطمع فى جمالها :

بالدر والياقوت زُين نحرهـــا ... ومُفصّل من لؤلؤ وزبرجد

قامت تراءى بين سجفى كلة كالشمس يوم طلوعها بالأسعد
أو درة صدفية غواصها بهجٌ متى يرها يهلّ ويسجد
نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العوّد

ماذا تعنى بالبيت الأخير ؟ وكيف تجرؤ على أن تصفها بهذا الوصف ؟ كأنما كانت لها حاجة تريد أن تقضيها حينما نظرت إليك ، يا صعلوك ! ألست بقولك هذا مجترئاً على حرم سيدك منكراً لنعمته ، جاحداً لفضله ، مذيعاً لسره ؟

وعلت أصوات استحسان من الحلقة التى أخذت تكبر ويزيد عددها ، ويفد إليها رجال كانوا واقفين أمام الحوانيت ، فسمعوا تلك المناقشة الحادة . ولكن النابغة الذبيانى وقف ، ورفع يديه طالباً السكوت والاستماع ، وأن تتاح له فرصة القول . وفى نغمة حادة مستعطفة قال :

— تهمة أنا منها برىء ، تلك التى لفقها لى خصومى وأعدائى . فما كنت — ورب الكعبة — لأنطق بهذا الشعر لو قاله شاعر غيرى ، وما كنت لأفكر فى نظمه لو قد رأيت سيدتى ، وصاحبة أميرنا النعمان . ولو كان رأسى هذا قد فكر فى نظم مثل هذا الشعر لفصلته عن جسمى ، أو كان قلبى هذا قد أوحى إلىّ بمثل هذا الشعور لخلعته من جوفى . إنها الغيرة التى دفعت أعدائى من الشعراء والأمراء المقربين للمليك أن يحسدونى . وأن يلفقوا هذه القصيدة التى أنا منها براء . ثم يا قوم ! إن

مولاى لم يتحدث عنى بجريمة ، وإنما كل ما عمل هو أنه أمر حرّاس قاعته ألا يسمحوا لى بالدخول عليه كعادتى ؛ فلما لجأت إلى عصام حاجبه أتوسل إليه أن يمكننى من الدخول دخلت على الأمير وهو جالس فى ندمائه فلم يبشّ فى وجهى كعادته ، وحييته فلم يرد على . فأنشدته قصيدتى التى أعتذر فيها ، والتى عرفتموها ، ويرويها أهل الحيرة فى مجالسهم ، والتى بدأتها بقولى :

أتانى ــ أبيت اللعن ــ أنك لمتنى　　　وتلك التى أهتم منها وأنصب

وما إن أتم النابغة حديثه حتى انطلق صوت رجل شيخ ، يبدو من تجاعيد وجهه تجارب الزمن العميقة ، وقال :

ــ إن الشائعات لا تصلح دليلا على الجريمة . وما دام مولانا المليك لم يفهْ بسبب غضبه على النابغة ، فكيف تأخذون برأى الأعداء فيه . إن جريمة الذبيانى عندى هى أنه أكثر من ذهابه إلى أعدائنا الغساسنة ، والتردد على قصورهم ومجالسهم ، وتلقى العطاء منهم ؛ فهو صديق أعدائنا ، وصديق أعدائنا عدونا . ومليكنا . . . . فقاطعته أصوات استحسان من كل جانب تردد :

زَه ! زَه ! كلام هو الحكمة ، والرأى السليم . لا مقام لعدونا بيننا .

واستأنف الشيخ الحكيم قوله :

ــ رويداً حتى أتم كلامى ! إن مليكنا أقدر الناس على الانتقام

ولو قد أراد أن يعاقب نابغة بنى ذبيان على ما فعل لكان أولى منا بعقابه . ويكفى أنه حرمه استقباله ، وأن يضمه إلى مجلسه، والنابغة الآن فى حرمنا وضيافتنا . ونحن العرب نرعى حرمة الضيف ، ونؤمن حياته ما دام بيننا ، وما لم يعلن عداءً لنا ، أو حرباً علينا . ولسوف يبقى النابغة بيننا ضيفاً كريماً حتى يرحل عنا .

وساد صمت عميق ، سمعت بعده همهمة ، فهم منها استحسان لهذا الرأى ، ووقف النابغة مرة أخرى يقول :

ـ يا كرام الحيرة من بنى لخم ، ويا من حملتم معكم من جنوبى بلاد العرب واليمن لغتنا وأخلاقنا وفتوتنا ! إن كنت مجرماً أو مخطئاً فحكموا سيوفكم فىّ . إن وفائى لملك المناذرة صاف كالذهب ، باق راسخ كالجبال . سأرحل عن هذه البلاد مع أول قافلة بجسمى لا بقلبى ، فهو مقيم معكم ، يضم وفائى وولائى لمن شملنى بنعمته وفضله . وسأرحل ، ولكن قصائدى فى الاعتذار لصاحب النعمة علىّ لن تموت. وسيحمل الركبان والوافدون إلى الحيرة قصائد اعتذارى التى سوف يخلدها الزمان . وهأنذا أتوجه إليه معتذراً مرة أخرى :

وعيد أبى قابوس فى غير كنهه   أتانى ودونى راكس فالضواجع [1]

(١) جاءنى تهديد النعمان فى غير ما حقيقة تدعو إليه . وراكس : واد ، والضواجع : منحنيات الأودية .

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة ... من الرُّقش[١] فى أنيابها السم ناقع
أتانى – أبيت اللعن – أنك لمتنى ... وتلك التى تستك منها المسامع
مقالةُ أن قد قلت : سوف أناله ... وذلك من تلقاء مثلك رائع
لعمرى – وما عمرى على بهين – ... لقد نطقت بطلا على الأقارع[٢]
أقارع . . . .

وقبل أن ينطلق بالكلمة التالية سُمعتْ أصوات النفير تصدر من « مسلحة باب الروم » ، وهو نفير إذا سمع من هذه المسلحة كان صوت إنذار بالخطر . فسرت فى الحاضرين موجة من الوجوم ، والتساؤل ، والقلق . وأخذوا ينصرفون فرادى وجماعات ، حتى وجد النابغة نفسه وحيداً واتجهت الجماهير إلى «مسلحة باب الروم» فى صخب واهتمام . والكل يتساءل عن سبب هذا النفير . والكل متلهف لمعرفة ما حدث .

٣ – الغساسنة خصوم المناذرة

الغساسنة قبيلة عربية الأصل . كان مقرها اليمن، وكانت تسمى أزد، فهاجرت حوالى سنة ٣٠٠ م عند ما تهدم سد مأرب الذى أشار إليه القرآن بقوله: (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية، جنتان عن يمين وشمال .

---

(١) فبت كأن حية نحيفة شديدة الفتك قد تناولتنى بالعض والنهش .

(٢) الأقارع هم بنو قريع بن عوف . وكان منهم مرة الذى وشى به عند النعمان .

كلوا من رزق ربكم واشكروا له . بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل) .

نزلت هذه الجماعة من أزد اليمن فى تهامة قرب ماء كان يتجمع بعد هطول المطر — وقرب آبار دائمة الماء طول السنة . وكان هذا الماء يسمى « ماء غسان » فعرفوا عند ذلك بأزد غسان .

وكان أن قلت مياه غسان ، ثم جفت . وهُدِّدت قبيلة أزد غسان هذه بالمجاعة ، وبموت الحرث والنسل ، والزرع والضرع . فأخذوا يرتحلون شمالاً إلى أطراف الجزيرة العربية . وذلك حوالى سنة ٤٠٠ م وهناك حاولوا الإقامة بأهليهم ومواشيهم . وكانوا أهل بأس وشدة، زادتهم صعوبة الحياة ، وزادهم شظف العيش متانة وتحملا للمصاعب . فلما أرادوا الاستقرار فى تلك المنطقة الواقعة بين بلاد الشام (سوريا ولبنان) وشمال الفرات من أطراف الجزيرة العربية قاومهم هناك سكان من البدو كانوا يسمون « الضجاعمة » ، وكان مقرهم فى الجنوب الشرقى من دمشق قريباً من الطرف الشمالى لطريق القوافل العظيم الذى كان يربط اليمن بالشام . وقامت مناوشات وحروب بين بنى غسان والضجاعمة ، انتهت بانتصار الغساسنة على أعدائهم واستقرارهم فى تلك الأرض الجديدة . فأخذوا يمدون نفوذهم شمالا وشرقاً وغرباً . ولم تكن تلك النواحى التى

استقروا فيها صحراء مجدبة كما هى الآن ، ولكنها كانت أراضى صالحة للزراعة . ذلك لأن جبال حوران التى يبلغ ارتفاعها نحو ألفى متر كانت مهبط الأمطار الغزيرة ، وكانت هذه الأمطار تنساب منها إلى الأودية المحيطة . فأفاد الغسانيون من هذه الأمطار. وحولوها إلى مساق للأراضى التى زرعوا فيها الحبوب والبساتين . وهكذا ظهرت فى تلك النواحى بشائر العمران والحضارة والرخاء، تلك التى لم تكن معروفة فى الأماكن الصحراوية بالجزيرة العربية .

وفى حوالى سنة ٥٠٠ م ظهر من بين الغساسنة رجل قوى العزيمة ، حكيم الرأى . يصلح للقيادة يسمى جفنة ، وصار ملكاً عليهم ، وأسس مملكة الغسانيين .

وكانت الدولة الرومانية قد مدت نفوذها على بلاد الشام وفلسطين ، وكانت تجارتها فى أسواق دمشق والقدس تحملها القوافل الذاهبة إلى بلاد اليمن جنوباً عن طريق مكة شتاء ، وإلى هذه الأسواق تفد القوافل من الجنوب صيفاً . وكانت هذه القوافل فى رحلة الشتاء والصيف معرضة لغارات البدو من صحارى الجزيرة العربية[١] . وكان هؤلاء البدو يطمعون أيضاً فى الوصول إلى سهول الشام الخصيبة ، وأعالى وادى الفرات ، وهى داخلة ضمن أرض الإمبراطورية الرومانية التى كانت عاصمتها القسطنطينية.

(١) جاء فى القرآن الكريم (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) .

فكيف يمكن تجنب غزوات هؤلاء البدو وهجومهم الذى لا ينقطع وهم قوم خفيفو الحركة ، سريعو الكر والفر ، يجدون فى الصحراء الواسعة خلفهم — حينما يتقدمون فى غاراتهم — ملجأ متشعب الطرق التى لا يعرفها أحد غيرهم . لذلك فكر أباطرة الرومان فى أن يستعينوا بملوك غسان ، فيعقدوا معهم اتفاقاً على أن يدفع الغساسنة عنهم غارات هؤلاء البدو : وقبل ملوك الرّوم هذا الاتفاق . وبذلك سادت بين الدولة الرومانية ومملكة الغساسنة علاقات الود والمعاونة ، وتأثر الغسانيون بحضارة الرومان ، فبنوا الدور ، وحفروا مجارى المياه لتسقى المزارع والبساتين ، وشيدوا المدن التى لا تزال آثارها باقية حتى الآن . ومنها تدمر وجلق ودمشق .

وكان لملوك غسان قصور فاخرة فخمة ، وحراس ، وجنود ، ومظاهر أبهة وعظمة كتلك التى كانت لملوك الحيرة ، والتى عرفنا شيئاً عنها فى عهد النعمان الثالث (أبى قابوس) . ولما كان الرومانيون نصارى دينهم المسيحية ، وكان الغسانيون أصدقاء لهم ؛ فقد اعتنق هؤلاء الغسانيون المسيحية أيضاً . ولذلك نسمع أهل لبنان والشام من المسيحيين يقولون : « نحن عرب ، وأقدم فى العروبة من العرب الذين وفدوا إلى هذه البلاد بعد الإسلام . لأننا غسانيون ، من أهل اليمن . فنحن أعرق فى العروبة » . وهم على حق فيما يقولون بعد أن عرفنا كيف جاء الغسانيون إلى نواحى الشام التى كانت تطلق فى ذلك الوقت على ما نسميه نحن الآن فلسطين وسوريا ولبنان .

وتولى مُلكَ غسان عدد من الملوك اختلفوا قوة وضعفاً . وكان منهم ملك قوى الشكيمة اسمه الحارث الثانى بن جبلة كوّن جيشاً قويّاً مدرباً ساعد الروم على استتباب الأمن فى تلك المنطقة ، كما ساعدهم فى حروبهم ضد الفرس المجاورين لهم ، والمنافسين لهم فى التجارة والنفوذ ، والراغبين فى الاستيلاء على بلاد الشام .

وكان أن تولى مُلكَ بنى غسان فى حوالى سنة ٥٨٠ م ملك « اسمه المنذر بن الحارث بن جبلة » ، فوقع بينه وبين إمبراطور الروم شىء من الجفاء وسوء التفاهم ، مما دعا المنذر هذا إلى الإغارة بجيشه على سوريا ومحاربة جيش الروم . فما كان من إمبراطور الروم إلا أن استرضاه وصالحه ثم دعاه إلى زيارته فى القسطنطينية . وهناك قبض عليه وأرسله منفيّاً إلى صقلية . .

ثار أبناء المنذر هذا ضد الروم — وكانوا أربعة — وأخذوا يغيرون على أطراف الإمبراطورية الرومانية ، ويلجأون إلى الصحراء كلما طاردهم جيش الروم ، وتغلب عليهم . وكانت هذه الفترة من تاريخ الغسانيين (ما بين سنة ٦٠٠ وسنة ٦١٠) فترة اضطراب ، وحوادث مستمرة . فهم كانوا الجبهة التى تقف ضد عرب الصحراء الذين كانوا يغيرون دائماً على القوافل التجارية الذاهبة إلى أرض الروم أو الراجعة منها ، وكانوا كذلك الجبهة التى تصد عرب الصحراء حينما كانوا يهاجمون المدن

الرومانية والأراضي المعمورة الرومانية ، والبساتين والمزارع فى بلاد الشام التابعة للرومان . وكانوا إلى هذا جميعه ينضمون إلى الجيش الرومانى فى حروبه ضد الجيش الفارسى ، لما كان من العداوة الدائمة بين إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الرومان المتجاورتين .

وكان النعمان الثالث « أبو قابوس » (٥٨٠ — ٦٠٢) معاصراً لهذه الحوادث والاضطرابات التى تجرى داخل حدود مملكة غسان . ومن قديم الزمان كان العداء مستحكماً بين المناذرة أهل النعمان والغساسنة ، لأن الأولين كانوا أصدقاء الفرس وحلفاءهم ، وكانوا يقومون بخدمات للفرس تشبه تلك الخدمات التى يقوم بها الغساسنة للروم . فكانت المنافسة إذاً قوية بين المناذرة والغساسنة . كان الأولون يحاربون إلى جانب الفرس والآخرون إلى جانب الروم . وكان الأولون مرابطين على حدود مملكة غسان خشية أن يغيروا على أرض الحيرة . وكان جيش الحيرة مكوناً من فرقتين عظيمتين : إحداهما فارسية وتسمى « دوسر » والثانية عربية وتسمى « الشهباء » .

ولم تكن الاضطرابات القائمة فى داخل حدود الغساسنة ، والغارات التى يقوم بها أبناء المنذر بن الحارث ضد إمبراطور الروم — المسمى طيباريوس الثانى — لتصرف اهتمام جيش النعمان بن المنذر عن العناية بالحدود والمحافظة عليها . لا بل إن الفرس أصدقاء النعمان قد طلبوا منه

فى ذلك الوقت أن يُرسل بكتائبه للإغارة على أراضى الغساسنة والاستيلاء عليها . فكانت كتائب أبى قاموس إذاً مرابطة على حدود الغساسنة تنتهز الفرصة للإغارة . وزاد فى أمل هذه الكتائب فى الغزو ما حدث من حرب بين إمبراطور الروم – طيباريوس الثانى – وبين أبناء المنذر الغسانى الأربعة ، وهزيمة هؤلاء ، وتشتت شملهم ، والقبض على النعمان الغسانى وهو الأخ الأكبر لهؤلاء الأربعة ، وأخذه سجين حرب إلى القسطنطينية .

كانت إذاً هذه الفترة من تاريخ ملوك غسان فترة اضطراب وارتباك وانحلال ، انتهت بزوال ملكهم ، وباختيار كل قبيلة من سكان أرض غسان أميراً عليها موالياً للإمبراطور الرومانى المنتصر ، وجميعهم يخضعون اسميًّا لعامل رومانى عينه الإمبراطور .

فى أثناء هذه الاضطرابات ، أى فى سنة ٦٠٠ م ، كانت جيوش بنى غسان المتقهقرة أمام جيوش الرومان ترتد نحو أراضى الحيرة . وكانت جيوش الحيرة المرابطة على حدود غسان تصد كل من يحاول أن يتخطى هذه الحدود من الغساسنة ، أو تقبض عليه ، وكثيراً ما كانت تدخل أرضَ غسان غازيةً ناهبة الأموال والنساء والأطفال والرجال ، لتعود بها أسلاباً ورقيقاً يباع فى الأسواق .

وكانت الغارات تزداد فى فصل الصيف ، لأنه فصْل الجفاف ؛

فالطرق صالحة للسير . وليس بالجبال سيول أو مجارى مياه كبيرة تعطل تنقل الجيوش ، وفى الصيف عادة يكون الكلأ للخيل ، والحاصلات الزراعية التى يستعين بها الجيش المحارب فى طعامه . ولذلك كانت الغارة يقوم بها الجيش فى الصيف تسمى « صائفة » ، والغارات تسمى « صوائف » .

وفى الوقت الذى كان فيه النابغة الذبيانى يزور الحيرة ، والذى غضب فيه عليه النعمان ، ولم يقبل اعتذاره ، كانت جيوش الحيرة مرابطة على حدود غسان ، وكانت « صوائف » غسان تغزو أرض الحيرة وكان النعمان أبو قابوس فى شغل شاغل بهذه الحوادث ، وبغيرها من الحوادث الداخلية التى كانت تهدد ملكه وعرشه . فقد شعر بأن إمبراطور الفرس الذى كان هو وقومه من المناذرة يدينون له بالولاء ، ويناصرونه ضد العرب والروم — هذا الإمبراطور — خسرو أبرويز — كان ينوى شرًّا بالنعمان .

٤ — النعمان فى مجلس شرابه

فى تلك الليلة التى اجتمعت فيها حلقة من الناس حول النابغة الذبيانى تناقشه الحساب ، وتجادله وتحاجه ، وتتهمه بنكران الجميل ، وجحود النعمة ، والخروج على طاعة سيده النعمان بن المنذر ، كان هذا الملك

نفسه فى مجلسه بقاعة السمر ، وفى حضرته وزيره – أو الرديف كما كان لقبه – والراوى ، والمضحك . وقد طلب النعمان شراباً ، فجاء الندل – وهو ساق الشراب – يحمل صينية من ذهب ، عليها كؤوس من ذهب ، وبيده إبريق من ذهب ، وتقدم من سيده . وقال :

– أبيت اللعن ؛ قهوة معتقة من كروم فارس يا مولاى ؟

فرفع النعمان رأسه قائلا :

– هاتها ، ودعنا نغرق الهموم ! هه ! حياة يتمناها الرعية ويكرهها الملوك . ما أحسن الحرية ! وما أسعد الأحرار .

وسكت ، فقال الرديف :

– أبيت اللعن . يا مولاى ! أى نجم أسعد من نجمك ؟ وأى ذكر أعلى من ذكرك ؟ أنت سيد العرب بلا منازع ؛ لقد تفكك شمل خصومنا الغساسنة ، وعما قريب سيزول ملكهم . وسيمتد سلطانك إلى أرضهم ، وستصبح سيد المناذرة والغساسنة جميعاً . وسيتقرب إليك الفرس والروم .

– زَيفٌ ، زَيف . زيف كل هذا . إننا نحن الملوكَ سجناءُ الحضارة . تخدعنا هذه المظاهر ، وهذا الترف ، وهذا البذخ ، وبريق الذهب ، وانتصارات يدفع ثمنها الأبرياء . . .

وصمت قليلا ثم قال :

– يا ندل . . . هات القهوة المعتقة !

وطاف الندل على الحاضرين يسقيهم . وقال الراوية :

— إن جدودك يا سيدى ، أبيت اللعن ، حينما غادروا بلاد اليمن منذ ثلاثة قرون ، وجاءوا إلى هذه البلاد وجدوها قليلة العمران والسكان ، يمر بها التجار والقوافل من فارس ومن جزيرتنا العربية ، فيتعرضون للسلب والنهب . أما اليوم فها هو ذا العمران : قصور ودور ، مزارع وبساتين ، عيون متفجرة ، وأسواق جارية المياه ، تجارة نافقة ، ووفود من الشعراء يردون أعتابك — كما كانوا من قبل يفدون إلى أعتاب أجدادك ، ليخلدوا بمدائحهم مناقبك الكريمة ، وآثارك الشاملة .

فضحك النعمان ضحكة سخرية ، قائلا :

— جدودى ! ليتهم ما قدموا إلى هذه الأرض . وليت سيل العرم ما خرب سد مأرب . لقد كانوا ملوكاً فى أعين أهل البادية ، ولكنهم صنائع فى أيدى أباطرة الفرس ، يحاربون معهم ضد العرب من أبناء العمومة والخئولة ، ويحمون طريق التجارة لكى يطمئن التجار الفرس على قوافلهم . ويناصرون جيش فارس لكى يحارب الروم ، فينتشر بذلك نفوذ فارس فى أرض الروم ، لا نفوذ المناذرة . لقد كانوا يحاربون أبناء أعمامهم من الغساسنة ، لا لأنهم يكرهونهم أو لأنهم أعداء ، ولكنها إرادة كسرى هى التى قضت بذلك . لقد كانوا ملوكاً فى مظاهرهم ، ولم يكونوا أحراراً فى قلوبهم .

وليتنا كنا نكافأ على ولائنا ! إن هؤلاء الملوك من الفرس ، الذين نسخر خيلنا ورجلنا فى حماية أرضهم ، والدفاع عن حدودهم أو تخومهم ليلفظون الملك منا وينبذونه نبذ النواة إذا لم يجدوا فيه الموالى الخاضع ، أو إذا أبدى شيئاً من الاستقلال والعزة التى هى طبيعة فينا نحن أبناءَ العرب . انظروا ماذا فعل طيباريوس إمبراطور الروم بالمنذر بن الحارث الغسانى ؟ لم يحترم مُلكه ، أو يراع ما بينهما من عهود ، فقبض عليه بلا رحمة ، ونفاه إلى صقلية . وماذا فعل بابنه النعمان ؟ إنه رهن السجن الآن يقاسى ما يقاسيه المجرمون ! لا ثقة لى بالأباطرة . إنهم يُبقون علينا ما دمنا نبقى على مصالحهم ، ونحمى ديارهم .

وتناول الراوى جرعة من الخمر كانت فى كأسه ، وتقدم الندل فصبه خمراً أخرى ، وشعر الراوى بصراحة من النعمان لم يألفها من قبل فأخذ يقول :

— نعم يا مولاى — أبيت اللعن — إن هؤلاء الأباطرة يجازوننا نحن العرب جزاء سنمار . فنحن نبنى ملكهم بجيوشنا وأسلحتنا ، ونحمى ظهورهم بأرواح أبنائنا . وهم لا يترددون فى تضحية أمرائنا وقادتنا حين يرون فى ذلك صوالحهم .

قال المضحك :

— سنمار ! سنمار ! لا شيد القصر ولا الدار ، ولا هو بناء ولا حجار .

القصة أصلها خرافة ، وأسطورة كلها سخافة . لا النعمان ولا البؤسان بنى الخورنق ولا السدير ، ولا إصطبل الحمير !

فابتسم النعمان وقال :

— أتجرؤ على أجدادى يا لكع . ألم يكن النعمان الأول جدى سيد الخورنق والسدير ؟

— كان هو جدّك العظيم يا مولاى — أبيت اللعن — ولكنه كان أعورَ فمن ينكر ذلك من الحاضرين ؟

— نعم كان أعور ، ولكنه سمح كريم ؛ ترك للرعية حرية التدين ؛ فجاءت النصرانية السمحة إلى الحيرة .

والتفت النعمان إلى الراوية قائلا :

— ماذا يقول الناس عن الخورنق يا رباح؟ أكان حقًّا بناءَ سنمار أم قصراً من قصور بابل الجميلة تلك التى نستطيع رؤيتها من مكا[illegible] هذا ؟ ما آفة الأخبار إلا رواتها . وخيال العامة ينسج من الصور ما يحلو لهم أن يتحدثوا به . ليتهم لم ينسبوا إلى جدى بناء الخورنق . فهو لم يبنه — على حد روايتهم — لنفسه ولا لقومه ، وإنما بناه لسيده ، لأن إرادة سيده كسرى فارس هى التى أمرت بذلك .

الراوى رباح :

— مولاى — أبيت اللعن — ما هذا يقول الناس . إنهم يقولون: كرم

النعمان الأول، وحسن ضيافته ، ونبل استقباله كل هؤلاء أوحى إليه أن يأمر ببناء الخورنق . وهم يقرنون اسم جدك العظيم بهذا العمل النبيل .

ــ زدنى القول ، وأسمعنى روايتهم يا رباح .

ــ كان يزدجرد الأول ، يا مولاى ــ أبيت اللعن ــ ملك فارس ، وكان صديقاً لجدك النعمان الأول، يُعزّه ويرسل إليه الهدايا الثمينة من لؤلؤ البحرين، وبُسط أذربيجان ، وخمور دجلة،وفتيات أرمينية . ولم يكن لكسرى يزدجرد ولد . وكان كلما ولد له طفل مات . وقد قال له الأطباء إن جو بلاد فارس ، وجو عاصمتها المدائن رطب غير صحى ، مملوء بأوباء الطفولة . فلو أمر الملك فبنى له قصر فى الصحراء لكان أنسب لصحو الوليد . ورزقه الله ابنه بهرام جور . وخاف عليه أوبئة الجو الرطب . وأشار عليه وزراؤه أن يُعجل ببناء القصر فى الصحراء ، فبعث إلى جدك، وعرض عليه الأمر . فما كان منه إلا أن تفضل ، سخاء وكرما، فأتى بسنمار البناء الرومانى البارع ، وأمره أن يبنى الخورنق . فجاء آية فى الجمال وإتقان الهندسة . وكان يُطلّ من الجنوب على الصحراء بجوها الجاف الصحى ، ومن الشمال على بساتين الفرات وسواقيه الجميلة ذات المياه الجارية ، وكانت الشمس تشرق عليه كل صباح فتغمره بضوئها ودفئها ، وتغرب عنه فى أفق سحرى جميل . وكانت جدرانه من السمك بحيث لا تتسرب حرارة الشمس إلى داخله

صيفاً ، وكانت طنفه البارزة مسقوفة بالآجر والرخام والمرمر الذى يعكس حرارة الشمس، فلا يشعر بها من فى داخله . وكانت تحيط به الحدائق الغناء التى جلب إليها جدك أجمل الزهور والرياحين من بساتين فارس ، وكانت تغنى بهذه الحدائق طيور جلبت خاصة من أرض الروم والهند، وكان يقوم على صيانة القصر خدم من أسرى الروم . فإذا جاء المساء تحول القصر إلى شعلة من الأضواء ، المنبعثة من الشموع فى كل مكان ، تعكسها المرايا الصقيلة . وتعزف القيان والمغنيات فى الأماسىّ والليالى عذب الموسيقى ، وتنشد ساحر الأغانى . فى هذا القصر — أبيت اللعن — عاش الأمير بهرام جور حتى بلغ الرشد ، ثم رجع إلى المدائن . .

النعمان :

— ولكن كيف جوزى سنمار ؟

الراوى رباح :

— إنهم يقولون — أبيت اللعن — إن هذا المهندس البيزنطى لما فرغ من بناء الخورنق تعجبَ الناس من حسن صنعته ، وإتقانُ بنائه . فقال سنمار : لو عرفت أنكم تُوفوننى أجرى كاملا ، وتكافئوننى على جهدى بما أستحقه لجعلته قصراً يدور مع الشمس كلما دارت . فلما سمع منه جدّك هذا سأله : وإنك لتقدر على أن تبنى ما هو أفضل منه ثم لم تبنه ؟ ! إنك إذاً غير مخلص : وأمر به فطرح من أعلى الخورنق ،

فهوى إلى الأرض ميتاً .

المضحك :

ـــ خرافة قديمة .

النعمان :

ـــ صه يا لكع :

والتفت النعمان إلى وزيره مخاطباً :

ـــ ألم يجاز إمبراطور الروم المنذر بن الحارث ملك الغساسنة جزاء سنمار ؟ فماذا ـــ ليت شعرى ـــ سيكون جزاؤنا من ملك فارس على كل ما نقدم له؟ جيوشنا على تخوم الروم تصدهم عن التقدم إلى أرض فارس . وحراسنا يراقبون حركات البدو خشية أن يعتدوا على القوافل . وكسرى يتقاضى الضرائب من القوافل التى تدخل بلاده من أرضنا . ثم هو غارق فى لهوه ومتعه !

وساد صمت لم يعرف أحد من الحاضرين متى يزول . ولكن النعمان عاد يقول :

ـــ لقد مضى من الليل نصفه . يا عصام ، غداً سنخرج للصيد . فأخبر « حازم » رئيس الحرس ، ودعه يُعد جوادى « المرعاد » إعداد الصيد . وليكن فى صحبتى أمراء بيتى . صاخب ، وناظم ، وعسافُ ،

obeikandi.com

وفيصل والأميرة كوثر .

وهمّ النعمان بالانصراف فهم الحاضرون . وجرى عصام ليفتح باب « قاعة السمر » . وقبل أن يتقدم النعمان نحو الباب سُمع صوت النفير . لقد كان ذلك النفير الذى سمعه الناس وهم ملتفون حول النابغة الذبيانى يجادلونه ويناقشونه . وكان هذا النفير صادراً من برج « باب الروم » .. ونظر النعمان إلى من حوله ، ثم وجه الحديث إلى الرديف قائلا :

— فيلقٌ يعود الآن من حدود الروم ومعه أسرى ! هل قام عراك بين رجالنا وجنود الروم ؟

فأجاب الرديف :

— إن نغمة النفير تفيد ما يقوله مولاى . وهى تشير إلى رجوع فيلق ومعه أسرى بينهم أمير أو أميرة .

وقبل أن يتم حديثه دخل أحد الحراس ، وتحدث إلى عصام . فتقدم عصام من النعمان قائلا :

— إن بين الأسرى ، يا مولاى — أبيت اللعن — فارسية . وهى تقول إنها أميرة ، كانت أسيرة عند الروم .

— أكرموا ضيافتها الليلة ، وعينوا لها من الجوارى من يقوم على رعايتها ومصالحها ، حتى نستطلع أمرها غداً . أحضروها عند ما يجتمع المجلس مساء الغد .

وخرج الملك ، ووراءه رجال مجلسه . ثم انصرفوا .

٥ ـ فن الصيد عند العرب

لم يكن الصيد عند العرب لهواً أو عبثاً، ولكنه كان فنًّا من الفنون التى يعتز لها العربى ، ويثقف بها من صغره ، كالرماية ، وركوب الخيل . وكان الطفل العربى من الأسرة الموسرة ، وأبناء الأمراء والملوك ، يتلقون هذه الفنون على يد مدربين مهرة ، كمدربى السباحة ، والتنس ، والكرة فى عصرنا الحاضر .

وكانت أدوات الصيد عندهم عادة القسىّ والنبال ، توضع القسى فى جعبة أو جعبات ، والنبالُ فى جعبة أو جعبات . وتختلف القسى طولا وقصراً كما يختلف الوتر فى الطول والقصر . وكانت النبال تختلفُ طولا وقصراً، وتؤخذ من أنواع مختلفة من الأشجار .

وكان الشاب يتدرب منذ صباه على استعمال هذه الأقواس ؛ لأن لكل نوع من الصيد قوساً يلائمه ، ونبالا تلائمه . فبقر الوحش مثلا يحتاج إلى قوس كبير ونبال كبيرة على حين يحتاج الغزال الصغير إلى قوس ونبال صغيرة.

ومن أدوات الصيد الحراب . وكانت هذه تستعمل لصيد الكواسر من الأسود والنمور والضباع ، حينما يكون الصائد قريباً منها . وكان

العرب يصطحبون معهم للصيد الصقور ، والكلاب يدربونها على أعمال الصيد منذ الصغر .

أما الصقور فكانت فراخها تؤخذ بعد فقسها من الأعشاش . يذهب عربى خبير إلى حيث يفقس بيض الصقور . والصقور عادة تبنى أوكارها فى قمم الجبال وقمم الأشجار العالية البعيدة عن الناس . يذهب هذا الخبير ومعه قطع من اللحم مختلفة الأحجام، فيربطها فى أحجار ثقيلة قريبة من أوكار الصقور. فعندما ترى الصقور قطع اللحم بنظرها الحاد تترك أوكارها ، وتسقط عليها لتختطفها . وكلما حاولت رفعها وجدتها ثقيلة . فتشغل عندئذ بأكلها أو تقطيعها بمخالبها ومناقيرها . وفى هذه اللحظة يصعد العربى الخبير إلى وكر الصقر ليأخذ منه الفراخ التى فقست ، ثم ينزل ويجرى بها سريعاً .

تأتى عندئذ عملية التدريب . فلمدرب الصقور على الصيد ساحة واسعة ، ولديه صقور كبيرة مدربة تلازمه ولا تفارقه . فعندما يكون عنده فرخ صغير يربيه أولا حتى يظهر ريشه ويستطيع الطيران . فإذا ما جاء صياد يريد أن يشترى صقراً للصيد اختار فرخاً صغيراً واشترك مع المدرب فى تدريبه .

يبدأ المدرب فيطلق عنزاً أو غزالا ، ويطلق وراءه صقراً مدرباً، وفى الوقت نفسه يكون مع الصياد الفرخ الصغير ينظر ويلاحظ ما يحدث .

فيطير الصقر المدرّب ويجرى وراء الفريسة ويخفق فوقها بجناحيه حتى يعرقل جريها . عندئذ يجرى المدرّب ويصطاد هذه الفريسة . كل هذا يحدث والفرخ يلاحظ ، والصياد ممسك بالفرخ . وفى المرحلة الثانية يطلق المدرّب الصقر وراء الفريسة ويطلق الصياد فرخه الصغير . فيقوم الفرخ الصغير بمطاردة الفريسة والخفقان فوقها بالطريقة نفسها تلك التى اتبعها الصقر المدرّب ، مشتركاً معه فى متابعة الفريسة . حتى تضطرب الفريسة من خفقان الأجنحة السريع القوى ، ولا تستطيع الحركة . وهكذا تُكرّر العملية عدة مرات ، حتى يطمئن كل من المدرّب والصياد إلى أن الفرخ الصغير فهم العملية .

وفى المرحلة الثالثة يقوم الصقر الصغير وحده بهذه العملية — عملية المطاردة — وذلك بأن يقبض عليه الصياد بيده ، ويطلق المدرب الفريسة . عندئذ يطلق الصياد الصقر الصغير وراءها . فإذا اطمأن المدرّب والصياد إلى أن الصقر الصغير قد تعلم وظيفته أمكن أخذه للصيد ، وإلا دُرّب مرات أخرى .

وعندما يتأكد المدرّب أن الصقر الصغير قد أتقن عملية المطاردة يعطيه للصياد — نظير ثمن مناسب — فيأخذه الصياد إلى منزله . فإذا ما أراد الخروج للصيد على ظهر جواده أخذ معه الصقر . وعادةً يضع على رأس هذا الصقر طاقية لتمنع عينيه من رؤية الأشياء حوله ، حتى

obeikandl.com

يصل الصياد إلى مكان الصيد، لأن الصقر إذا ما رأى وهو فى طريقه إلى مكان الصيد أنواعاً من الحيوانات قد ينطلق وراءها كعادته .

وقد يقف الصقر على كتف صاحبه ، أو أمامه على الجواد . فحالما يرى الصياد غزالا أو أرنباً أو حيواناً بريًّا يريد صيده يطلق عليه النبلة . وفى الحال ينطلق الصقر وراء النبلة مطارداً الفريسة بالطريقة التى تدرب عليها . فيسرع الصياد وهو على ظهر الجواد إلى الفريسة ليرميها مرة أخرى بالنبلة ، أو ليقبض عليها بنفسه إن كانت فى ارتباك شديد ، ولا تستطيع الجرى .

وتتم عملية الصيد والمطاردة هذه فى سرعة ومهارة وخفة بحيث يكون الصياد والجواد والصقر كأنهم فريق واحد متعاون على مطاردة الفريسة ، والانطلاق وراءها حيث تذهب .

أما الكلاب فتعتمد فى معرفة مكان الفريسة على حاسة الشم بدلا من حاسة البصر التى يعتمد عليها الصقور . وتُدرَّب الكلاب كما تدرب الصقور . ومهمتها هى متابعة الفريسة، ومطاردتها ، والجرى وراءها وأمامها . والنباح المتواصل والعض فى السيقان . وبذلك تضطرب الفريسة ، وترتبك ، ولا تستطيع الجرى بعيداً . فتقف ، وعندئذ يتقدم إليها الصياد لرميها بالنبال، أو للقبض عليها .

وقد تدخل الفريسة فى الغابات والأحراج هاربة مختفية، فتتبعها

الكلاب ، ويعرف الصياد مكان الفريسة بتتبع الكلاب وسماع نباحها .

هكذا كانت العادة عند العرب منذ قديم العصور . وما زالت بعض القبائل العربية — كما فى الكويت الآن — تستخدم الصقور فى الصيد .

وفى أوربا تُستخدم كلاب الصيد لمطاردة الأرانب ، والثعالب ، والغزلان فى الغابات ، مشتركة مع الصيادين .

٦ — النعمان يخرج للصيد

مع مطلع الفجر التالى للأمسية التى قضاها النعمان بين حاشيته فى «قاعة السمر» كان الفريق الذى سيصاحبه فى الصيد واقفاً فى ساحة القصر. وقد تهيأت الخيول الفارهة عليها سروج جيدة الصنع من الجلد والقطيفة وكان هناك غلمان يحملون أدوات الصيد : جعبات القسى والنبال ، وآخرون قد وقفوا وعلى أكتافهم صقور الصيد ، وبجوارهم كلاب ضامرة الجسم ، دقيقة السيقان ، خفيفة الحركة والعدْو ، متنمرة متأهبة ، كأنها على موعد مع الحرب ، هى كلاب الصيد .

أما ذلك الفريق فكان يضم الرديف — الوزير عيلان — ومضحك الملك ، والأمراء الذين طلب الملك أن يرافقوه ، وبينهم الأمير فيصل بن

أخيه وزوجه الأميرة كوثر البارعة فى الصيد ، والتى كان النعمان يدعوها عادة لمرافقته فى مثل هذه الحالات.

وإلى جانب هذا الفريق جماعة من الحرس النعمانى ومعهم خيولهم ، وعلى مسافة من الحرس ، وفى ركن من الساحة . وقف جماعة الطهاة ، وخدم المائدة ، وسقاة الملك . ومعهم خيول محملة بالأطعمة والمؤونة .

وأمام المدخل الخاص بالجناح الذى كان النعمان يقيم فيه ، وقف « المرعاد » جواد النعمان الأشقر ، وقد ارتفع رأسه فى وقار وهيبة : وبرز صدره كأنه صدر أسد قوة ومتانة ، ودق خصره ، وعلا عجزه . وبدت سيقانه وهى تصغر وتدق بالتدريج من الأفخاذ إلى الحوافر كأنها سيقان من الفولاذ . وكان فوق ظهر «المرعاد » سرج من القطيفة بطانته من اللبد الناعم . وأطراف السرج مزخرفة بخيوط من الذهب . وبجانب « المرعاد » وقف السائس الملكى استعداداً لقدوم سيده .

ظهر النعمان من المدخل الخاص فهمهم « المرعاد » همهمة ترحيب وحماسة . وحيا النعمان الحاضرين فردوا عليه التحية . وتقدم السائس الملكى فساعده على ركوب الجواد . ثم ركب الأمراء . وخرج الجميع من « الباب النعمانى » متجهين نحو الصحراء عند أطراف الحيرة . حيث تكثر الظباء . وحمير الوحش . والأبقار البرية . وحيث الغابات والأحراج التى تختفى فيها هذه الحيوانات .

سار النعمان وخلفه الحاشية ، وبجواره الأميرة كوثر يلاطفها ويداعبها . ثم وصل الفريق إلى مكان رأى الملك أنه يصلح للنزول فنزلوا . فى ذلك المكان كانت عين تنحدر مياهها كالفضة من صخرة عالية إلى واد فسيح ، فتجرى مياهها بعيداً فى ذلك الوادى حيث تختفى . وكانت قمة هذه الصخرة هضبة منبسطة واسعة. وهناك على تلك الهضبة أمر النعمان أن تنصب الخيام . فبدأ الغلمان العمل ، وقامت قبة عالية بيضاء من الصوف النقى ، فرشت أرضها بالبسط العجمية . ووضعت على جوانبها حشايا يتكئ عليها الجالسون . وإلى جانب هذه القبة أقيمت قبة أخرى للمائدة والشراب .

وبدأ الصيد . وكان النعمان مغرماً بالصيد بالأنشوطة يستعملها فى مطاردة الفريسة ، فيلقى بعروتها حول رقبة الحيوان . ويندفع الحيوان هارباً . عندئذ يتمسك النعمان بالطرف الذى فى يده قوياً شديداً . وبذلك يضيق الخناق على الحيوان الذى لا يلبث أن يشعر بالاختناق . فيستسلم : وهنا يسرع غلمان الملك وتابعوه ليقبضوا على الصيد .

هذه الطريقة فى الصيد تحتاج إلى خفة . ومهارة . وقوة . وبراعة من الصائد . وكان النعمان لها مجيداً .

وعند ما بدأ الصيد اندفع النعمان على ظهر « المرعاد » يجرى هنا وهناك . وعلى كتفه صقر الصيد . وكان « المرعاد » كالبرق أو السهم

سرعة ومضاء . وانتشر حول النعمان الأمراء ؛ كل يصيد بطريقته . وفجأة صاح أحد الأمراء :

— زَه ! زَه ! مرحىَ يا بن الأكرمين ، ويانسل المناذرة . أيها الأمير فيصَل !

لقد اصطاد الأمير فيصل غزالا . وهو صياد ماهر كزوجه الأميرة كوثر ابنة أخت النعمان ، التى تعرف إليها فى خرجة كهذه من خرجات الصيد . واجتمع الكل حول هذا الغزال . وقالوا : افتتاح ميمون . قال الملك :

— هذا غداؤنا .

وتقدم الخدم والطهاة فأخذوا الغزال . وانصرفوا ليعدوه للغداء . ولهم فى إعداد لحوم الصيد حينما يكونون فى الخلاء طريقة طريفة .

أخذ أحد الخدم يحفر حفرة كبيرة تسع الغزال مرتين . وذهب خادم آخر فجمع قدراً من الحطب . على حين قام خادم ثالث بذبح الغزال ، وسلخه ، وتنظيفه . ووُضع الحطبُ فى الحفرة . وأشعلت فيه النار حتى صار جمراً . فوضع الغزالُ فوقه . وفوق الغزال رُصَّ قدْرٌ من الحطب والخشب . فأخذ الحطب والخشب فى الاشتعال والاحتراق حتى صار جمراً . عندئذ حثوا عليه الرمال ، وتركوه .

استأنف المليك ورجاله الصيد . ومن بعيد لاح حمار وحش . ولحظه

النعمان فاندفع نحوه على « المرعاد » . وكان الحمار يعدو فى سرعة البرق ، فيتبعه المرعاد . ويتبع رجالُ الحاشية المليك . وطوح النعمان الأنشوطة فى الهواء ، وتابع الفريسة . ودخل حرجاً من الأحراج ، وخرج منه يتابع فريسته وظلت الحاشية و راءه هكذا . والصقور والكلاب تطارد الفريسة حتى تمكن من قذف الأنشوطة ، فالتفت العر وة حول رقبة الحيوان الذى اندفع إلى الأمام فى قوة وعنف وكفاح . وظل يقاوم العروة . وكانت الدفعة قوية فجذبت النعمان وراءها ، فسقط على الأرض . غير أن طرف الحبل كان مربوطاً إلى سرج المرعاد . فلم يستطع الحمار أن يقاوم طويلا ، وهوى مستسلماً . وجرى الأمراء إلى النعمان فرفعوه . ونظر هو إليهم باسماً يقول :

— إننى فى سلامة ، ولم أصب بسوء !

فهلل الأمراء ورجال الحاشية :

— مرحى ! مرحى ! سيد العرب . حفظتك الأقدار ، وأخطأك المكروه .

وقام النعمان ، وقد هيأ له رجاله المرعاد ، فاستوى عليه وهو يقول :

— لعل هذا تفسير رؤياى التى رأيتها ليلة أمس .

ولم يزد على هذا ، فسكت من حوله .

ورُبط حمار الوحش ، وحمل على ظهر أحد الخيول . وعاد الجميع

إلى حيث نصبت الخيام . فلما وصلوا كان الغداء مهيا : لحم حنيذ من الغزال ، وخبز قديد، وزيتون مخلل فى النبيذ ، وأعناب وتفاح ، وخمر معتقة .

وجلس الجميع للغداء .

ولما انتهوا من غدائهم انتقلوا إلى قبة الاستراحة حيث جلس كل على حشية . وبدءوا يسمرون، ويذكر كل بعض تجاربه الماضية فى الصيد والطراد . وكان هواء الصحراء يهب — فى تلك البقعة المرتفعة — لطيفاً عليلا جافًا . وكانت إغفاءة قصيرة، نهضوا بعدها قبيل العصر ليستأنفوا السير راجعين إلى الحيرة .

٧ — حلم وتشاؤم

فى الربع الثانى من الليل انعقد مجلس النعمان فى « قاعة السمر » . وكان من بين الحضور الرديف عيلان ، والراوى ، والمضحك ، والأمير فيصل ، والأميرة كوثر ، والمترجم الفارسى — على اليمين — والمترجم الرومى على الشمال ، وحسام قائد الكتيبة التى عادت فى الليلة الماضية من تخوم الروم .

وبدأ النعمان الحديث قائلا :

obeikandl.com

– يا عصام ! علىّ بإسحاق البابلى المنجم ! أين الساق ؟

واختفى عصام لحظات ثم ظهر . وجاء الساق ، وأخذ يمر بالشراب فى كئوس من فضة وذهب وبينما الجميع يسمرون ويشربون إذ ظهر إسحاق البابلى ، واتجه نحو النعمان حتى وقف بين يديه . ثم انحنى فلمس نعلى الملك بأصابعه ، ووضعها على رأسه قائلا :

– سعدت مساء ، أبيت اللعن ، وسعد كل من بحضرتك .

فقال النعمان :

– اجلس يا إسحاق . لأمر هام دعوناك . ودونك الشراب !

وسادت لحظة صمت قال بعدها النعمان :

– رأيتنى الليلة الماضية فى المنام ، وكأن أسداً مفترساً قد هجم علىّ فى تلك القاعة . فهممت أن أقاومه بسيفى هذا ، ولكنه كان قويًّا عنيفاً . قبض على السيف بأنيابه ، وضربنى بكفه ومخالبه ضربة أطارتنى من هذه الحجرة فاستيقظت وجسمى يرتعد فزعاً لهول هذا الحلم .

وعلت فى المجلس أصوات مرتاعة ، من حناجر متلجلجة ، فى نغمة مضطربة :

– سلمت ونحن فداؤك ! أبيت اللعن ! رعتك العناية الربانية ، وأزهر نجمك!

وقبل أن يفتح المنجم فمه ، أو ينبس ببنت شفة ، قال الرديف :

ـ إن أذن لى مولاى تكلمت .

فأجاب النعمان :

ـ ومن فى المجلس أحق منك بالكلام يا عيلان ؟ وساد صمت .

فقال الوزير :

ـ أعز الله مُلكَ مولاى . وأيد مجده . إن بلادنا فى عصر زاهر : فالتجارة نافقة . والقوافل والطرق آمنة مطمئنة ، والخيرات كثيرة ، والمزارع عامرة ، والبساتين مثمرة . ومقامك مقام طاعة وتقدير ، وحمد وثناء . يفد إليك الشعراء من كل فج . ومن كل قبيلة عربية . وقف على بابك ومدحك النابغة الذبيانى ، وحسان بن ثابت ، والأعشى . ولبيد بن ربيعة ، والربيع بن زياد العبسى وغيرهم .

أما جيوشنا على تخوم الروم والغسانيين . فظافرة منتصرة . وبالأمس رجعت كتيبة ومعها أسرى الروم والغساسنة . وأما حلفاؤنا من الفرس فنحن معهم على خير حال ؛ ولاء متبادل ، وتعاون وتهاد .

وإنّ ما جرى اليوم لك يا مولاى ـ أبيت اللعن ـ أثناء الصيد هو تفسير حلم الليلة البارحة . ولعل إسحاق البابلى يشاركنى هذا الرأى .

فالتفت اسحاق المنجم إلى الوزير سائلا :

ـ ما الذى حدث اليوم ؟

ـ حدث أن خرجنا للصيد والطراد . . .

obeikandl.com

وقاطع مضحك الملك قائلا :

ـ وصدنا غزالا فأكلناه . وكان طعمه لذيذاً ، فلم نترك منه إلا العظام . . .

وابتسم الحاضرون ، واستأنف الوزير حديثه :

ـ وطارد المليك حمار وحش عنيف ، ورمى الأنشوطة عليه ، فطوقت عنقه . ولكن الوحش اندفع فى انطلاقه فقاومه المرعاد ، واختل توازنه . ومال المليك عن ظهر الجواد ، فتلقته أمنا الأرض إشفاقاً منها وعطفاً ، ولم يمس بسوء .

قال إسحاق المنجم :

ـ هذا يا مولاى ـ أبيت اللعن ـ تفسير رؤياك . إن حمار الوحش هو الأسد . والمرعاد يرمز إلى الكرسى الذى تستوى عليه الآن . وهبوطك من على ظهره يفسر ما رأيته فى المنام من خروجك من الحجرة بعد هجوم الأسد عليك . أما الخاتمة فيمن وسلام ؛ فلقد تلقتك أمنا الأرض وحمتك ، وأحاطت بك كما يحيط بك رجالك وشعبك . لقد فسر الواقع الرؤيا .

فقال النعمان فى صوت حزين :

ـ قلبى يحدثنى بمستقبل غامض ، ومخاطر لا تعرفونها . ولا أشعر بالراحة أو السعادة منذ رؤيا البارحة . . .

وهنا سمع صوت الأميرة كوثر تقول :

obeikandi.com

– لعل ما حدث اليوم هو نتيجة لشعورك – يا خالى ويا طويل العمر – بالقلق والضيق . فنحن فى حياتنا خاضعون لأفكارنا وشعورنا ، وكثيراً ما يتشكل سلوكنا وتتشكل أعمالنا لتناسب أفكارنا . ولقد رافقتك السلامة فى يومنا هذا ، وسترافقك فى الغد .

واتجه إليها النعمان قائلاً :

– أمنية طيبة يا بنيتى ، ليقبلها منك رب السماء ، ولتكن فأل خير وبركة . ثم نظر إلى حسام قائد الكتيبة وقال :

– وأنت يا حسام ما وراءك من أخبار التخوم ؟ وماذا قدمت به من أسرى الأعداء والأصدقاء .

قال حسام القائد :

– إن أمرت يا سيدى ، أبيت اللعن – استحضرت تلك الأميرة التى أسرناها منذ بضعة أيام . لقد كانت فى عربة مع أحد القواد الرومان حينما هاجمت فصيلة من جنود الرومان الثائرين من الغساسنة ، وطاردتهم فدخلوا أرضنا . فلما ذهبنا لنطرد الغساسنة وجدنا الفصيلة الرومانية فقاتلناها ولحقنا بها ، وأسرنا من فيها .

– ومن كان فيها ؟

– قائد رومانى ، وتلك الفتاة التى تدعى أنها أميرة .

– وأين القائد ؟

ـ لقد انتحر يا مولاى . لقد أهوى على حنجرته بسيفه فقطع أحد مشرايين ، ولم يلبث أن فارق الحياة . وجاء من الجيش الرومانى من استردّوه . أما الأميرة فقد احتفظنا بها تحت الحراسة كما أمرت .

ـ إلىّ بها .

وهنا خرج عصام . وبعد هنيهة فُتح الباب ودخل حارسان بيدهما سياط ، وبينهما فتاة فى نحو الثامنة عشرة من العمر ، بيضاء البشرة ، محمرة الوجنتين ، ممشوقة القوام ، سوداء الشعر ، نجلاء العينين . ولم يبد عليها خوف أو فزع . وسارت حتّى وقفت جانباً أمام النعمان بحيث يراها ولا تحجب عنه أحداً من الحاضرين . ووقف الحارسان خلفها .

قال النعمان :

ـ ما جاء بك إلى أرضنا أيتها الفتاة ؟

فأجابت فى لكنة رومية !

ـ إنى لم أدخل بلادك غازية أو معادية أو متجسسة ، ولكنى أميرة فارسية ، وابنة أمير . وأهلى من أسرة الملك . لقد كنت ضحية الحرب التى قامت على الحدود منذ ست سنوات بين جيشنا الفارسى وجيش الروم وكان والدى القائد منوجهر يرأس جيش فارس . فلما تقهقر الجيش أمام جيش الروم أبى والدى أن يفر من المعركة ، وبرز للقائد الرومانى فبارزه ، وجرح فى هذه المعركة . فلما رأى رجاله ما صار إليه أغاروا مرة أخرى

obeikandi.com

على كتيبة الروم انتقاماً وكرهاً ، ولكن الروم كانوا أقوى وأكثر عدداً فهزموهم ، وأسرونى فيمن أسروا . وحمل والدى جريحاً إلى البلاد حيث مات . أما أنا فكنت من نصيب ذلك القائد الرومانى الذى انتحر . لقد كنت سريته وحظيته ثم زوجته .

— وكيف جاز له أن يتزوجك .

— إن الرومان لا يتزوجون من غير الروميات الأحرار . ولكننى كنت أميرة وشرف أسرتى لا يقل عن شرف أسرته . ولذلك تزوجنى .

— هل كان والدك الأمير منوجهر ؟

— نعم هو والدى . وكان قائد الجيش الفارسى .

— وما اسمك أيتها الأميرة .

— اسمى شاهناز .

— وإذاً فأنت تتكلمين الفارسية ؟

— نعم وأغنيها . نعم أغنى لغتى لأنها كل ما بقى لدى من أمتى وذكريات بلادى .

— وأىّ آلات الموسيقى تلعبين ؟

— القيثارة .

وهنا التفت النعمان إلى وزيره وقال :

— أجلسوها وأحضروا لها قيثارة لتغنينا .

وفى لمح البرق خرج عصام ، ثم عاد ومعه قيثارة ناولها الأميرة « شاهناز » . فأخذتها وبدأت تغنى وتقول :

أز او دورى مكن زيرا عزلت أورا شعله ور ميكند
حقيقت را كفتم ولى أو كوش نميدهد
أورا باندازه إى سرزنش كردم كه بأو زبان رسانيد
در صورتيكه بتصور من سر زنش براى أو سودمنداست
تورا كشورى دادم ولى سياسة تو تغيير نكرر
كسيكه ملك خودرا درست إداره نكند أزدستش ميرود

وكان هذا الغناء الفارسى معناه بالتقريب ما قاله الشاعر الأندلسى ابن زريق :

لا تعذليه فإن العذل يولعه   قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه
جاوزت فى لومه حداً أضربه   من حيث قدرت أن اللوم ينفعه
أعطيت ملكاً فلم تحسن سياسته   كذاك من لا يسوس الملك ينزعه

وكان أن استمع الحاضرون إلى غنائها وتوقيعها الجميل ، ولكن لما وصلت إلى البيت الأخير :

أعطيت ملكاً فلم تحسن سياسته   كذاك من لا يسوس الملك ينزعه

ظهر على وجه النعمان الغضب والثورة ، وقال فى صوت متهدج حاد :

ــ أهكذا تغنين يا حمقاء ! لقد قلتها الآن . أبعدوها عنى .

obeikandi.com

وصحب كلامَ النعمان هذا زمجرةٌ واحتجاج صاخب من الحاضرين . فهوى الحارسان عليها بالسياط ، وألقت الفتاة بالقيثارة على الأرض وصارت تدافع بيديها عن نفسها وتصرخ ، وتتلقى السياط بذراعيها .

ولكن النعمان هدأ وتنبه لما حدث فقال :

ــ خلوا عنها ، وأزيلوها من هنا .

فحملت فى الحال إلى خارج القاعة ، وساد صمت لم يبدده إلا صوت المضْحك يقول :

ــ هكذا يُكافأ المغنيات على قدر جمالهن وقدر غنائهن . كل من يغنى للملك يناله منه العطاء . ملك كريم وعطاء كريم !

ونهض النعمان وفى وجهه حدة وشدة ، وهو يقول :

ــ لما تفسر الرؤيا بعد . . إن القدر يخبئ لنا المجاهيل . ومن يدرى ؟

وتقدمت الأميرة كوثر من الملك وتناولت يده اليسرى ، وقبلتها قائلة :

ــ نعمت حالا ، وهدأت بالا أيها الخال المليك . نحن الآن فى الهزيع الثالث من الليل . وأنت الساعة تحتاج للراحة والنوم .

كانت تقول هذا وهى تسير بجانب النعمان حتى خرج من قاعة السمر . وهناك أمام باب القاعة نظر إلى من كان حوله وقال :

ــ عموا مساءً أيها الصّحب ، وسعدت ليلتكم .

فأجابوا :

ـ نعمت مساء ، أبيت اللعين ، وسعد ليلك وصباحك .

وانصرف النعمان ومعه الأميرة كوثر إلى الجناح الملكي الخاص ، وانصرف من كانوا معه إلى ديارهم .

٨ ـ خطر منتظر

كان اليوم التالي يوم أحد . وكانت عادة النعمان أن يذهب كل يوم أحد إلى كنيسة صغيرة ملاصقة لدير خارج الحيرة[١] تسمى « دير هند[٢] » ليتعبد فيها . غير أن النعمان لم يذهب إلى الكنيسة ذلك اليوم . وظن وزيره ـ أو رديفه عيلان ـ أن تخلفه عن الذهاب للصلاة في ذلك اليوم كان بسبب ما أصابه من تعب في الصيد أثناء اليوم السابق ، وما أصابه من ضيق وقلق في الليلتين السابقتين . وقبل أن يغادر الوزير بيته ليذهب إلى « القصر النعماني » ويسأل عن حال مليكه جاءه رسول يحمل كتاباً من النعمان يقول فيه : إذا غابت الشمس فأقدم إليّ من

---

(١) كلمة الحيرة أصلها « حرتا » وهي كلمة سريانية معناها الحصن . وهذا يدل على وظيفتها الأولى ؛ فقد كانت حصناً للجنود يحمون الحدود الفارسية ضد الغارات العربية .

(٢) كانت هند أم الملك عمرو (٥٥ – ٦٩) وكانت أميرة غسانية نصرانية وقد بنت هذا الدير .

Obeikandi.com

الباب السريّ الخاص ، وسأكون فى مقصورتى . وقد صدرت الأوامر للحرس أن يحضروك إلىّ .

وشغلت هذه الرسالةُ الوزير عيلان . ولكنه كان يعتقد أن النعمان ربما أحس بأمر يريد أن يستشيره فيه منفرداً . فلما ذهب إليه حياه النعمان تحية كريمة ، وأجلسه إلى جواره على حشية من الحرير ملؤها ريش النعام . ثم قال له :

ــ إنك يا عيلان صديقى المخلص ، ووزير والدى وخادمه الأمين . ولثقتى بك آثرت أن أستشيرك فى خلوة عن بقية الحاشية . فقد انتابتنى فى الأسابيع الأخيرة هموم شاغله ، وأصابنى قلق مؤرق ، وما زلت متشائماً من ذلك الحلم الذى قصصته عليكم .

إنك تعلم ــ يا عيلان ــ أن رعيتى وفيةٌ لى بقدر حرصى على خيرهم ؛ سواء منهم العباد الذين استوطنوا فى هذه البلاد قبل قدوم أجدادى التنوخيين ، والأحلاف الذين آويناهم عند ما قدموا إلينا من الجزيرة العربية وحالفونا واستقروا بديارنا . وليس بيننا خلاف فى الدين ، فمعظمنا على ملة السيد المسيح . ولست أفرق بين أحد من الرعية بسبب أصله أو قبيلته أو عقيدته . ولكننى مع هذا كله أشعر أن العباد لا يدينون لى بالولاء ، وأنهم يكيدون لى كل الكيد ، ويدبرون المؤامرات ضدى عند الملك خسرو أبرَويز . وقد زاد نشاطهم بالمدائن فى السنوات الأخيرة ،

فقد وفدت إلى الأخبار أن الملك يُقرّبهم منه ، ويعدهم بالملك إن هم نجحوا فى التخلص منى .

فاجاب الوزير :

– إنك يا مولاى ، أبيت اللعن ، وارث هذا الملك أباً عن جد ، والملكُ فى بيتكم ، والجنود خدمكم ورجالكم . وبدونكم لا يستطيع ملك فارسى أن يحمى تخومه ولا دياره . فكيف يُصدّق فيكم الوشايات ، أو يفكر فى إيثار أحد من أمراء العباد عليكم .

– لقد شعرت بتغيره عند ما ذهبت مع سيف بن ذى يزن نستنجده لتخليص اليمن من سلطان الأحباش . وقد كان جالساً فى إيوانه بالمدائن فلم أجد منه ما ألفتُ من الحفاوة بى والإكرام . وردّ طلبة سيف . وقال له : « إن بلادك بعيدة عن بلادى ، فلم أكن لأورط جيشاً من فارس ليدافع عن أرض للعرب » . لقد قال له ذلك بحضرتى ونسى أننى وجيشى من العرب – عرب اليمن بلادنا الأصلية – وأننا ندافع عن أرضه وتخومه . وهو لم يكرّم مقدمى عليه ووساطتى عنده لسيف بن ذى يزن ، فلم يقبل أن يخرج جيشاً لمساعدة أهل اليمن ، على حين أن جيشى يساعده .

– ولكنه ، يا مولاى ، أرسل حملة فى ثمانى سفن يرافقها سيف ، ويرأسها وَهرَز القائد الفارسى الباسل الذى قتل قائد الأحباش .

– لم يكن الذين خرجوا من فارس لتخليص اليمن من الأحباش

جنوداً نظاميين من الفرس ، ولكنهم كانوا مجرمين امتلأت بهم السجون . وقد أرسلهم كسرى فى تلك الحملة لا إكراماً لى ، ولكن لأن رجال دولته – ومن بينهم عدى بن زيد العبادىّ – هم الذين أشاروا عليه أن يجعل الحملة من هؤلاء المجرمين وقالوا له : « ابعث بهم إلى اليمن ليحاربوا ، فإن هلكوا كان ذلك الذى أردت بهم . وإن ظفروا أضفت إلى ملكك ملكاً جديداً » .

– ولكن مشورة عدى بن زيد العبادىّ لم تضر أحداً . ونجح رجال الحملة فى تطهير اليمن من الأحباش .

– لقد شعرت منذ ذلك الوقت ، يوم أن زرت خسرو أبرويز فى قصره ، أن عدى بن زيد – وهو أحد أفراد رعيّتى – يدبر المكايد ضدى ويعمل على التخلص منى . إن له مأرباً !

– ولكنك يا مولاى تخلصت منه فى النهاية . وكانت عاقبته ما تعرف : موت فى السجن.

– موت فى السجن ! إنه مات ميتة طبيعية . لم أكن سبباً فى قتله ولا تعذيبه . ومع ذلك أخشى أن يتهمنى الناس بقتله أو موته . فماذا يقولون عن هذا الحادث ؟

– إنهم لا يعرفون الحقيقة . والناس يتأثرون بالشائعات ، ويبالغون فى الروايات .

– اصْدُقنى القول يا عيلان ؛ فأنت وزيرى المخلص ، وصديقى الذى أعتمد عليه . ماذا يقول الناس ؟

– يقولون ، أبيت اللعن ؛ إن عدى بن زيد العبادىّ قد تربى فى بيت أبيك المنذر الرابع فهو مدين بالفضل لأبيك وأسرتك .

– ليس فى هذا القول شيء جديد . إننى أريد أن أعرف ما يقولون عن سبب سجنه ، وموته فى السجن .

– وهم يقولون ، أبيت اللعن ، إنك تلميذه لأنه كان مؤدبك الخاص ، وهو الذى عهد إليه والدك بأن يلقنك اللغة البهلوية ، الفارسية ، وآدابها ، ويثقفك فى سلوك الأمراء ، وآداب الملوك . وإنك ولا شك تحفظ له هذه المكرمة ، ولا تنسى له فضله .

فصاح النعمان قائلا :

– وهم يقولون كذلك إننى غدرت به ، واستحضرته من بلاط كسرى لكى أسجنه وأقتله .

– هذه شائعات ، يا سيدى ، ولا ينبغى أن نهتم بالشائعات .. نعم إنهم يقولون : «لقد كان عدى بن زيد موفقاً فى عمله فى بلاط ملك فارس الذى كان يتولى به ديوان الترجمة . وكان الشاه مغتبطاً بوجوده عنده لأنه كان ينقل إلى الفارسية كل ما يأتى إلى كسرى من رسائل عربية ، ويترجم له شفاهاً أحاديث الزائرين وخطبهم . وهو الذى ترجم خطب

وفود العرب على كسرى . لما كان له من مقدرة بارعة فى الترجمة .

ـ إنك تحوم حول الموضوع الذى أعنيه . أنت تعرف أن زيداً بن عدى هذا هو الذى يتولى الآن ديوان الترجمة من العربية إلى الفارسية ، ومن الفارسية إلى العربية فى بلاط كسرى خسرو أبرويز . وتعرف أنه يدس لى الدسائس هناك . وقد وصلتنى أخبار بأنه يدبر لى مع كسرى أمراً خطيراً . والناس يقولون إن زيداً هذا يريد أن يثأر لأبيه الذى قتلته أنا فى السجن . هل قتلت أنا عدياً كما يقولون ؟ أهذا صحيح؟

ـ الناس لا يعرفون حقيقة الأمر . إنك ـ يا مولاى ـ قد استحضرت عدياً من بلاط كسرى ، ولكنك لم تذكر لكسرى سبب استحضاره . وترامى إليك أنه ساخط ناقم لأنك وليت إخوتك وأقاربك فى مناصب الجيش والوزارة . وقد أودعته السجن حتى تناقشه فى الأمر ، ويوضح لك ما كان يشاع عنه من أنه وشى بك عند كسرى . ولكن الموت عاجله وهو فى السجن .

ـ أتدرى ما يقول كسرى؟ إنه يقول : إننى غدرت بعدىّ ، ولم أحترم علاقته بالملك ، وهو أحد رجال بلاطه ، وإننى لم أكن وفياً لعدى هذا الذى أدبنى وثقفنى ، فدبرت له من قتله . وأنا من هذا كله برىء .

ـ لعل هذا هو ما يقوله زيد بن عدى الآن ، بعد أن صار مقرباً

من كسرى فهو بلا شك يستطيع أن يلفق له الأخبار ، وأن يزوّر الحقائق . وليس بغريب أن يدبر من المكائد ما يغير قلب كسرى عليك لا سيما أنه كتب إليك يطلب منك إطلاق سراح عدى فلم تطلق سراحه .

— لقد وصل الكتاب وأنا فى صائفة مع الجيش بالقرب من تخوم الغساسنة . وكانت هناك معركة أجلت عودتى إلى الحيرة . لذلك لم أتسلم الكتاب إلا بعد عودتى . وكان عدى حينذاك قد مات.

— نعم كان قد مات ، أو دُبّرَ له الموت .

فثار النعمان قائلا :

— ماذا تقول يا عيلان؟ دُبّر له الموت ؟ ! دُبر له بإذنى أو بغير إذنى؟

— لم يكن شيء من هذا بإذن مولاى ، ولكن ما يقال هو أن إخوتك شعروا بأنه حاقد عليهم فأرادوا التخلص منه .

— آه . لقد فهمت الآن كل شيء ، ولم أكن أفهمه من قبل . لقد مات عدى قتيلا ، وهو فى السجن . وأنا الذى سجنته . وإذاً فلكسرى الحق فى أن يتهمنى بقتله ، لاسيما أنه قد أرسل إلىّ يطلب إطلاق سراحه ، فلم يتم هذا ، ولا عذر لى بالغياب خارج الحيرة . فمن ذا الذى يشرح لكسرى كل هذه الظروف . إن زيد بن عدى لا شك سيوغر صدره ضدى ، وسيفهمه أننى تحديت إرادة الشاه ؛ وسيعمل الشاه وزيد معاً

على إقصائى من العرش ، والقضاء على أسرة المناذرة ، إن هذا كل ما أخشاه . الآن فهمت الأمر على حقيقته .

ــ لست أدرى لماذا يتصوّر مولاى كل هذه الأمور : إنك ــ أبيت اللعن ــ قد حلمت حلماً تشاءمت منه . وليس ثمة علاقة بين الحلم وكل هذه الهواجس .

ــ ما كنت أظنك ، يا عيلان ، قصير النظر بهذ الصورة . إن ما لدى من أفكار ليس هواجس ، وإنما هى أفكار مردها إلى الأخبار التى ترد إلى من عيونى وجواسيسى فى بلاط كسرى. وليس الحلم الذى حلمته إلا نتيجة لهذه الأخبار . إن زيد بن عدى يدبر لنا المكايد . والشاه ينتظر أية فرصة للتخلص منى . فلا بد أن نُعدّ العدة من الآن .

ــ وأية عدة يا مولاى ؟

ــ العدة لمقاومة ملك فارس إن هو أغار علينا وأراد أن يستولى على بلادنا .

ــ إن كسرى لا يجرؤ على مثل هذا العمل، لأنه لا يريد أن يغرر بجيشه ليحاربنا . وهو محتاج إلى الجيش لمواجهة غارات الروم . وهو يخشى إن حاربنا أن نتخلى عنه فى صد هجمات الغساسنة على حدوده وجندنا هناك مرابطون .

ــ الغساسنة ؟ ! أين الغساسنة الآن ؟ إنك تعلم أن جمعهم قد

تفرق ، وسلطانهم قد زال ، وإمبراطور الروم يحاربهم ويشردهم فى كل مكان . فلم يعد شاه فارس يخشى من الغساسنة .

— ماذا يرى إذاً مولاى ؟

— العرب أهلنا . وهم منا ونحن منهم . ومهما تقربنا إلى الفرس أو الرومان ، وتقربوا إلينا فإنما ذلك لمصالح مؤقتة ، وهى مصالحهم هم ، ومصالح بلادهم . والرأى عندى أن نقوى علاقتنا بأهلنا من العرب ، ونحالفهم، ونستعين بهم ، حتى إذا أراد ملك فارس أن يهاجمنا أو يستولى على بلادنا وجدنا من إخواننا أهل القبائل العربية من نستعين به .

— هذا و الرأى السديد يا مولاى ، ولكن . . .

— لا تقل ولكن . إنى قررت هذا . وقد نويت أن أبعث إلى هانئ بن مسعود البكرى أستقدمه وجماعة من رجاله لبحث الموقف ، والتفاوض فيما عسى أن نعمل . وبذلك ندبر خطة مشتركة . وسوف يفد علينا فى الأيام القليلة القادمة . وسوف يفد فى قافلة تجارية حتى لا يذاع خبر قدومه لأمر آخر غير التجارة . وعند ما يفد سنجتمع به فى مجلس خاص .

— إن سمح لى مولاى قلت إنه من الخير أن تستقبله أولا فى مجلس عام وتكرمه بحضور رجال الدولة ، باعتباره سيداً فى قومه — بكر بن وائل — وضيفاً فى بلادنا . وبذلك يعرف العامة والخاصة أن استقبالك له

obeikandi.com

كان لقدومه تاجراً وزائراً وسوف أدبر أنا الاجتماع الخاص .

– ليكن ذلك . وليكن الاجتماع فى منزلك .

– أمرك مطاع يا سيدى .

ثم انصرف الوزير عيلان من مجلس النعمان ، ورأسه مملوء بالأفكار المضطربة ، والقلق لما سمعه تلك الليلة من سيده المليك .

٩ – تدبير الحيلة

بدأ الخدم فى قصر النعمان يعدون جناحاً خاصًّا يقيم فيه زائر كريم . ولم يكن أحد يعرف من الزائر . وقال بعضهم إنه رسول من قبل كسرى خسرو أبرويز ، وقال آخرون إنه زيد بن عدى نفسه جاء ليعتذر للملك النعمان عما شاع حوله من أخبار . وذهب غيرهم إلى أن الملك النعمان قد أحب تلك الأميرة الفارسية شاهناز التى أسرت على تخوم الروم ، وإنه ينوى أن يفرد لها جناحاً لتكون إحدى حظاياه .

وسرت فى القصر شائعات وروايات متناقضة ، فالملك النعمان قد اعتكف أياماً ولم يذهب إلى قاعة السمر كعادته ، وكان أمراء المناذرة من أهله وإخوته يفدون إلى مقصورته الخاصة فى القصر لزيارته والسؤال عنه . وكان من بين الزائرين الأمراء صاحب وناظم وعساف وهم من قادة

الحرس ، والأمير فيصل ابن أخيه الأمير منصور ، والأميرة كوثر زوجة الأمير فيصل ، والرديف عيلان .

وفى إحدى الليالى كان جميع هؤلاء حضوراً . ودعا النعمان بالمغنيات والراقصات فعزفن ورقصن ، وكانت تدار على الحاضرين كؤوس الخمر المعتقة من كروم فارس والشام . وفى الربع الثالث من الليل كان الجميع فى نشوة الشراب . وكان كل شىء خارج القصر هادئاً ، وكانت مدينة الحيرة فى صمت عميق ، وكان رجال الحرس النعمانى يرقبون من مسالحهم كل شىء . كل من يخرج من المدينة أو يدخل إليها . وبينما كان المجلس هكذا فى نشوة وسرور إذ أمر النعمان بوقف الغناء والرقص ، وأن يخرج المغنيات والراقصات . ثم التفت إلى من حوله من الأمراء قائلا :

ـ يا أبناء المناذرة ، ويا رجالى من أمراء الحيرة . أخشى أن يكون اليوم خمر وغداً أمر . إننى ما دعوتكم لهذا المجلس الليلة للتسلية والتلهى ، ولكن لأمر خطير يهمكم جميعاً ؛ لأن مستقبلكم ومستقبل أسرة المناذرة جميعاً مرتبط به .

لقد ترامى إلىّ خبر الدسائس التى يُعدها زيد بن عدى فى بلاط كسرى خسرو أبرويز . ونحن مهما أظهرنا من ولاء لكسرى وقدمنا من عون له فى الحرب والسلم لا نأمن أن يتغير علينا ، فيعمل على إزالة ملكنا . إننى

لا أخشى على ملكى ، وإنما أخشى على ملك المناذرة . إن خسرو يريد أن يخلعنى عن العرش ويولى غيرى ممن يرضى عنه زيد بن عدى .

وهنا ارتفعت من بين الحاضرين أصوات استنكار ، وسخط ، وكان السامع يميز منها كلمات مثل : زيد الخائن ! ويل لهذا الوغد ! لا بد أن يلقى جزاءه ! ولكن النعمان بعد برهة قال بصوت الآمر الحازم !

– صمتاً ، صمتاً ، يا رجالى . فليس الكلام بمفيد ما لم يصحبه العمل . لقد اجتمعنا اليوم لتدبير الخطة .

قال عيلان الرديف :

– كلنا فى خدمة المليك .

وفجأة قالت الأميرة كوثر :

– أسمع حركة خارج باب الغرفة ، يجب أن نكون على حذر .

وفى الحال خرج الأمير فيصل من الغرفة ورجع يقول :

– لا شىء ، رجال الحرس يتناوبون الحراسة .

. واستأنف النعمان قوله :

– بماذا إذاً تشيرون ؟

قال الأمير عساف :

– أرى أن ندعو الملك خسرو إلى الحيرة ، ونستقبله أطيب استقبال ، ونكرمه ، حتى نكتسب قلبه وعطفه . وبذلك تبطل دسائس زيد بن عدى

وأغلب الظن أنك – أبيت اللعن – تفكر فى هذا لأنى أرى الخدم يعدون جناحاً خاصاً فى القصر لاستقبال زائر عظيم .

وأضاف الأمير صاحب :

– ولا بد أن نعرض عليه خيلنا ورَجلنا ، وجيوشنا فى عرض عسكرى كبير ، ليرى مقدار قوتنا واستعدادنا ، فلا يفكر فى تدبير أى أمر عسكرى أو حربى ضد بلادنا . وسنعرض عليه فلول الأسرى من جنود الروم والغساسنة الذين جاء بهم جيشنا فى غزوات هذا الصيف ، ليرى مقدار انتصاراتنا ، وما نؤديه من خدمات حربية لمساعدته . ومحاربة أعدائه ...

وقاطع الأمير فيصل فى نغمة متأنية مفكرة فقال :

– الرأى عندى غير هذا . نحن لا نضمن أن يقبل كسرى دعوة الملك . فكل تدبير إذاً نفكر فيه الآن سابق لقبول الدعوة . فإذا ما وجهت الدعوة له ورفضها ، فإن هذا الرفض سيكون لطمة كبرى لنا ، وانتصاراً لزيد بن عدى . ومن أجل هذا أقترح أن نقوى أنفسنا ، ونكثر من حلفائنا ، ونجمع العرب ورجال القبائل المجاورة حولنا . فنصير بذلك قوة لها وزنها وقيمتها . وبذلك يشعر خسرو أننا قوة لا يستهان بها ؛ وأنه ليس من السهل عليه أن يتخلى عنا أو يدبر أى أمر ضدنا .

فقال النعمان :

ــ زه ، زه ! رأى صائب ، وتدبير سليم .

وتساءل الأمير ناظم :

ــ وأى القبائل العربية يمكن أن يكون حليفنا ، وينضم إلينا ؟ إن بيننا وبين بنى يربوع ما تعلمون من خلاف وحرب . وقد كانوا يطمعون فى أن يكون ببلاط النعمان وزير منهم ، فرفضنا طلبتهم ، ولم يكن لهم نصيب فى الرفادة .

وأضاف الوزير عيلان :

ــ وأنا لا أثق بقبيلة طيئ ، فقد كانت دائماً موالية للعُباد ، ومنهم زيد بن عدى ، وأخشى إن نحن كشفنا لهم عن أسرارنا أن يصبحوا جواسيس علينا لخصومنا . وأعلم أنهم على صلة بزيد بن عدى وبكسرى نفسه .

وقال النعمان :

ــ ولا بد أن نستبعد قبيلة عامر بن صعصعة . وهى قبيلة قوية رجالها أشداء ، وذوو بأس فى الحروب . ولكنى لا أظن أنهم قد نسوا ما كان بيننا وبينهم من حرب فى « يوم السُّلاَّن » . إنهم لم ينسوه ولن ينسوهُ ونحن لن ننساهُ أبداً . فقد كانت الهزيمة علينا . ولكن خسرو لا بد قد نسيه ، ونسى أننا فى تلك الحرب كنا نَدافع عن قافلته ، وتجارته التى كانت تحملها القافلة لتباع فى عكاظ ، وأن بنى عامر ما كانوا ليعتدوا علينا نحن العربَ ، أهلهم ، ولكنهم كانوا يريدون أن يعتدوا على تجار

الفرس ، ويسلبوا أموالهم . فماذا كسبنا نحن ؟ لقد تنكر رجالنا فى زى التجار، وسافروا فى قافلتهم إلى بنى عامر ، وحاربوهم ، وقتلوا منهم ، وقتلوا هم من جنودنا وأبنائنا، وكانت الدائرة علينا . فلم نجد من خسرو فى ذلك الوقت عوناً حربيّاً ، ولا عتاداً نبعث به لرجالنا المحاربين . واكتفى برسالة شكر بعثبها إلينا . والآن نسى هذا كله ولا يفكر إلا فى التخلص من عرش المناذرة، وجيش المناذرة !

قالت الأميرة كوثر :

ـ ولا أظن أن قبيلة ذبيان ترغب فى التحالف معنا ، بعد طردك شاعرها وحرمانك إياه من الدخول إلى مجلسك يا خالى؛ أبيت اللعن . إن بنى ذبيان يعتقدون أن ما لحق شاعرهم من هوان كان موجهاً إليهم ، لا بل موجهاً إلى كل فرد من أفراد قبيلتهم . وهم الآن أكثر ما يكونون ميلا إلى الغساسنة . ومهما كان الغساسنة عرباً فإن ما بيننا وبينهم من عداء قديم لم يزل كامناً فى النفوس تثيره الأحداث . ألم يحرقوا مدينتنا الحيرة ؟ ألم نقتل نحن رجالهم ؟

وارتفع صوت النعمان فى شىء من الأسف والندم :

ـ من أجل الفرس عادينا أهلنا العرب، ومن أجل الفرس حاربنا إخواننا العرب . واليوم يريد أن يتخلى عنا الفرس فلا نجد من أهلنا وإخواننا حلفاء .

قال الرديف عيلان :

– إنك ، يا مولاى ، بعيد النظر ، حازم الرأى . وصداقتنا لقبيلة بكر بن وائل قديمة عريقة . وبيننا وبينها صلات التجارة والجوار . وكثيراً ما وفدوا إلى ديارنا وأسواقنا ؛ فلقوا منا الإكرام والضيافة . وفى السنوات الجدب ترعى مواشيهم بأرضنا ، وينزلون مياهنا . وليس بيننا وبينهم حرب أو ثارات .

وكان النعمان ينصت ، ويتبع كل كلمة يقولها الوزير عيلان بكثير من الاهتمام، كأنه كان يعبر عن رأيه . ولم يتركه يستمر فى الحديث ، بل هز رأسه وقال :

زه ، زه . رأى صائب ، وتدبير سليم . إن هانئ بن‌مسعود من خيرة رجال بنى بكر . وقد عرفته شجاعاً جريئاً ، وفارساً مقداماً . عرفت فيه ذلك منذ أن قدم على رأس وفد بنى بكر بن وائل ليهنئنى بتولى عرش الحيرة . وعرفت فيه الفروسية يوم أن خرجنا معاً للصيد وغامرنا فى أحد الأحراج ، وتعرضنا لهجوم أسد كاسر . فاستطاع بجرأته وقوته أن يصرع الأسد ويقتله . والرأى عندى أن نبعث إليه رسولا منكم يعرض عليه التحالف معنا ، فنكون لقبيلته أصدقاء ، ننصرها فى الحرب ، ونؤيدها فى السلم ، ونرحب بتجارتهم ، وماشيتهم ترعى فى مراعينا ، وترد مياهنا . فمن يكون رسولى إليه ؟

فوقف الأمير صاخب وقال :

– لبيك ، أبيت اللعن .

ووقف الأمير فيصل وقال :

– لبيك، أبيت اللعن .

ووقف كل من حضر من الأمراء ، واحداً بعد واحد ، وقال :

– لبيك ، أبيت اللعن .

قال النعمان :

– ليذهب الأمير صاخب والأمير عساف ، وليأخذا معهما من يريدان من الجنود والخدم ، وليحملوا معهم الهدايا الثمينة . وليعرضوا الفكرة على هانىء بن مسعود فى حذر وكرامة ، حتى لا يشعر بأننا فى حاجة إليه . ثم يدعونه لزيارتنا .

وهنا قال الأمير فيصل :

– إن أذن لى عمى – أطال الله عمره – اقترحت أن تخرج هذه البعثة متجهة نحو تخوم الروم ، حتى لا يعرف أحد وجهتها . فإذا ما ابتعدت عن المعمور من البلاد اتجهت نحو مواطن بكر بن وائل . وبذلك يظل الأمر سراً مكتوماً . وإن قبل هانئ بن مسعود محالفتنا ، ورضى أن يزورنا بقى معه أحد الأميرين ، وعاد الآخر ومعه حاشيته ليحمل لنا الخبر ، حتى نتهيأ له .

قال النعمان :

— زه ، زه . رأى صائب ، وتدبير سليم . وسيكون الجناح الخاص الذى يعده الخدم الآن فى القصر دار الضيافة لهانئ بن مسعود إن هو قبل الدعوة .

ولاحت أضواء الفجر ، وصاحت ديكة الصباح . فأعلن النعمان انتهاء الاجتماع ، ووقف قائلا :

— والآن أيها الأمراء من بنى منذر ، عموا صباحاً . وليصحب التوفيق والسعد رسولى إلى ابن مسعود .

فتقدم الجميع يقبل كل منهم يد النعمان . وتقدمت الأميرة كوثر فقبلته فى خده . وانصرفوا .

١٠ – التقرب إلى بنى بكر

مضى يومان كان فيهما الأمير صاخب يعد العدة لهذه البعثة السرية . فعهد إلى الأمير عساف أن يشترى نفائس الهدايا من السيوف الهندية ، والدروع الرومية ، ولآلئ البحرين ، والأبسطة العجمية ، والخيول الفارهة ، والسروج المزركشة بالقصب والقطيفة والحرير الدمشقى . وطلب إليه أن يعد أحمالا من الحبوب والتوابل والخمور والعطور ، وعدداً من الجوارى الروميات .

وفى الوقت نفسه اختار الأمير صاخب من رجاله الأشداء من يعتمد عليهم فى مواجهة المخاطر ، ومن يثق بهم فى حفظ الأسرار .

واتفق الأمير صاخب مع رئيس الحرس فى المسلحة التى بجانب « باب الروم » أن يكون خروج البعثة من هذا الباب فى منتصف الليل ، وألا يطلق الحراس النفير كعادتهم إيذاناً بخروج البعثة من ذلك الباب حتى لا يتنبه لخروجهم أحد .

وفى الربع الثانى من الليل بينما كان النعمان فى قاعة السمر يستقبل زائرين من وفود العرب ورجال مملكته تقدم الحاجب عصام ، ووقف بين يديه قائلا :

ـ الأمير صاخب بالباب يا مولاى .

فأجاب النعمان :

ـ ليدخل الأمير صاخب .

وانفرج باب القاعة ، ودخل الأمير صاخب فى لباس الجندية ، وتقدم إلى حيث كان يجلس النعمان ، وانحنى أمامه ، ثم رفع رأسه قائلا :

ـ نعمت مساء ، أبيت اللعن .

ـ نعمت مساء أيها الأمير . إلى أين وجهتك ؟

ـ إن أذن لى مولاى خرجت الليلة فى بعثة استطلاعية إلى حدود

openkandil.com

الروم . فالغساسنة لا يزالون فى اشتباك معهم ، وجنودنا تواجه الآن مهمتين ؛ مهمة إرجاع الفارّين من الغساسنة إلى ديارهم أو أسرهم ؛ ومهمة محاربة الكتائب الرومية التى تتعدى التخوم فتدخل ديارنا .

ــ وهل أعددت لرحلتك هذه كل ما تحتاج إليه من ذخيرة ورجال ؟

ــ نعم ، أبيت اللعن .

ــ لا تنس أن يصلنى منك البريد بمجرد وصولك إلى التخوم ، وأن توافينى بأخبارك .

ــ السمع والطاعة يا مولاى .

ــ سر موفقاً ، ولتحرسك السماء ، وليبارك الرب خطواتك فى الحل والترحال .

وهنا انحنى الأمير صاحب فقبل يد الملك ، ثم تراجع خطوات واستدار حتى واجه باب القاعة ، ورفع يده بحذاء كتفه قائلا :

ــ عموا مساء معشر الحاضرين .

فارتفع صوت الحاضرين :

ــ عم مساء ، أيها الأمير ، صحبتك السلامة .

* * *

هناك عند باب الروم كان الأمير عساف فى الانتظار ومعه رجاله

من الفرسان والجنود الأشداء ، وقافلة من الإبل تحمل الهدايا ، وجواد عربي فاره ، ملجم ومسرج في انتظار سيده الأمير صاخب . وحانت ساعة منتصف الليل ، وخرج الأمير صاخب إلى باب الروم ، وامتطى جواده . ثم سار الركب نحو تخوم الروم .

هكذا ساروا ثلاثة أيام بلياليها حتى وصلوا إلى منتصف الطريق بين الحيرة ودمشق . ثم حطوا رحالهم ليستريحوا في مكان بالقرب من عين ماء ثرة ، وأشجار وارفة الظلال . وكانوا من قبل يعرفون هذا المكان لأنه محط الجنود الذاهبة إلى التخوم والراجعة منها . وفي هذه البقعة قام بنا مرتفع كأنه حصن ، به جنود للحراسة ، وغرفات النوم ، ومخازن للمؤونة ، وإسطبلات للخيل والإبل . ورئيسه قائد من قواد الجيش النعماني . ومن هذا المكان وإليه كان البريد الصادر من الحيرة يرسل إلى قواد الجنود على التخوم ، وكان البريد الوارد من التخوم يُرسل إلى الحيرة . وفي هذا الحصن برج لتربية الحمام الزاجل ، وهو حمام البريد الذي يحمل الرسائل المريعة إلى قياده الجيش في الحيرة ، وإلى الحصون التي على تخوم الروم .

وتقدم الأمير صاخب فدخل الحصن ، وحياه الحارس الواقف بالباب تحية تكريم لأمير قائد . وسرعان ما جاء قائد الحصن فرحب بالأمير صاخب ، واجتمع به على انفراد . وفي هذا الاجتماع أفضى إليه الأمير

صاحب بخطته ووجهته . وطلب إليه أن يرسل ببريد الحمام الزاجل رسالة إلى المليك يخبره بوصول البعثة ، وأنها استراحت يوماً بالحصن ثم استأنفت سيرها إلى غايتها .

وقد استراح الأمير صاحب ورجاله فى ذلك الحصن وخارجه يوماً ، جددوا فيه ملابسهم ، وأراحوا دوابهم ، وعلفوها ونظفوها وسقوها ، وتزودوا بما يلزمهم من الماء الذى يحتاجون إليه حتى يصلوا إلى أقرب عين فى الطريق .

وفى فجر اليوم الثالث من وصولهم غادروا الحصن متجهين نحو الجنوب الشرقى فى طريق للقوافل مطروق مألوف ، ولكنهم قبل أن يغادروا الحصن ، خلعوا ملابس الجندية ، ولبسوا ثياب البدو والتجار . وهم قد فعلوا ذلك لأنهم كانوا واثقين من أنهم سيمرون فى طريقهم ببعض القبائل غير الموالية مثل قبيلة طيئ وذبيان ، وبقوافل من التجار . فلم يكن من الحكمة أن يعرف أحد حقيقتهم ولا غرضهم .

واستمرت رحلتهم تسعة أيام ارتاحوا فيها يوماً واحداً هو اليوم الخامس . ولما اقتربوا من أطراف قبيلة بكر بن وائل أناخوا خارجها . وكان ذلك فى مساء اليوم التاسع من مغادرة الحصن . ولم يشأ الأمير صاحب أن يدخل إلى القبيلة بخيله وإبله وأحماله فى الليل ، بل بعث رسولا من رجاله — هو الأمير عساف — ليبحث عن ديار هانئ بن

مسعود ، ويخبره بأمر البعثة . ونجح الأمير عساف فى مهمته ، والتقى بهانئ الذى أسرع فخرج ليرحب بالأمير صاحب ورجاله ، وكانت ليلة تعارف وضيافة استمرت حتى الفجر .

فى ساعات الفجر الأولى تحركت القافلة برجالها وخيلها وإبلها إلى ديار هانئ بن مسعود . وكانت قد نصبت للضيوف الأمراء ورجالهم خيام خاصة من الجلد والوبر . فتوجهوا نحوها .

وشاع الخبر بين القبيلة أن تجاراً من الحيرة قد وفدوا ، وأنهم أصدقاء هانئ بن مسعود . فتوافد على دياره أعيان القبيلة وسادتها يرحبون بالضيوف ويدعونهم إلى ديارهم للتكريم والطعام . وكانت مآدب عربية فخمة نحرت فيها الإبل ، وحنذت فيها اللحوم ، ومدت الأسمطة بالعصيدة واللبن واللحوم المقددة والمحنذة ، وإلى جنبها أباريق الخمور والشراب .

° ° °

وبعد ثلاثة أيام من الضيافة قبل هانئ بن مسعود أن يذهب لزيارة النعمان ، وأن يبحث معه الأمر أولا قبل أن يعلنه فى قبيلته . ثم جمع رؤساء القبيلة وأفضى إليهم بمهمة البعثة ، واستشارهم فى أمر سفره فقبلوا ، واقترحوا أن يصاحبه من رجال القبيلة بعض شبانها وكهولها .

وهنا أسرع الأمير صاحب فأرسل الأمير « عساف » ومعه خمسة من الرجال الأشداء إلى الحيرة ليحملوا إلى النعمان خبر قبول هانئ بن مسعود

للدعوة ، وأنه مقبل عليه خلال شهر . فارتحل الأمير عساف إلى الحيرة برسالته . وكان فى زى التجار . واتخذ طريقه إلى الحيرة مباشرة .

كان الرأى أن يسافر هانئ بن مسعود إلى الحيرة فى جمع من رجاله متنكرين فى زى تجار حتى لا يلفتوا نظر القبائل إلى هذه الزيارة ولذلك بدأ هانئ يعد القافلة لهذا الغرض . فاستدعى خمسين من شباب قبيلته ، وعهد إليهم أن يعدوا قافلة من مائتى بعير ، وأن يزودوها بما عسى أن يحتاجوا إليه فى الطريق من الزاد والماء ، وأن يحملوا بعض هذه الإبل بما عندهم من جلود وأصواف وأوبار ، وبما اشتروه من توابل اليمن وعطورها وبخورها . وأعلن هانئ أنه متجه إلى سوق الحيرة قبل أن يبدأ الصيف . وكان ذلك فى فصل الربيع .

١١ ــ هانىء بن مسعود يسافر للحيرة

تهيأت القافلة كما أراد هانئ بن مسعود ، وجعل فى المقدمة بضعة جمال من الهجين الأبيض الكريم الأصل . وفوق هذه الجمال عملت هوادج من الجلد والقطيفة والحرير ليركبها الأمير صاحب وصحبه وتزيناً الأمير صاحب ورجاله وهانئ بن مسعود وصحبه فى زى التجار ، وبدأت القافلة سيرها نحو الشمال الغربى محاذية الخليج الفارسى الذى كان على

اليمين ، ومحاذية ملتقى دجلة والفرات ، فى طريق تجارى قديم ، وكان لا بد أن تمر فى طريقها هذا بأطراف قبيلة شيبان وثعل وكليب . ونجحت القافلة فى أن تحتفظ بسرّ مهمتها مكتوماً . فلم يعرف أحد أن لها غاية من السفر إلى الحيرة غير التجارة . وكان هانئ بن مسعود بارعاً فى تفكيره وتدبيره . فإنه بدلا من أن ينزل بقافلته فى الطريق على القبائل التى مر بها ليتزود بالماء والطعام ، كان ينزل على آبار المياه القريبة من الطريق والبعيدة عن منازل القبائل . وكان قد حمل معه من الطعام ولا سيما التمر ما يكفيه وصحبه مدة السفر .

أشرفت القافلة على مدخل الحيرة مساء أحد الأيام فى أواخر فصل الربيع من سنة ٦٠٢ ميلادية . وهناك وجد الأمير صاحب الأمير « عساف » وجماعة من رجاله فى الانتظار ، يحملون من النعمان رسالة تحية وترحيب . وأخبر الأمير عساف الأمير صاحب بأنه من الخير أن تدخل القافلة فى منتصف الليل ، وأن دخولها سيعلن عنه من مسلحة « باب العرب » ، وأن نفير المسلحة سيطلق لفترة قصيرة ، حتى لا يتنبه السكان لأهمية القافلة القادمة .

* * *

كان الملك النعمان فى قاعة السمر تلك الليلة ، يستمع إلى أحاديث الراوية ، وفكاهات المضحك ، وأغانى المغنيات . وكانت الليلة إحدى

Obeikandi.com

ليالى اللهو والسمر التى اعتاد النعمان أن يحييها ، ويدعو إليها خاصته ، ويستقبل فيها المادحين من الشعراء . وكان الراوية قبل منتصف الليل قد بدأ يحدث الحاضرين ، ويقول :

– نعم يا مولاى ، أبيت اللعن ، كان لجدودك من أقيال اليمن وملوكها تجارة وحضارة . أما التجارة فكانت تأتى بها السفن من الهند والصين ، فترسو على الشواطئ ومنها تحمل على ظهور الإبل فى قوافل ضخمة تسير إلى الشام ومصر وبلاد الروم ، محملة بالذهب والعاج والتوابل والقطن . والملابس واللآلىء والبخور والعطور والجوارى . وكانت تلك القوافل تعود محملة ببضائع من الشمال ، منها الحنطة والزيوت والخمور والأصباغ والمنسوجات وسبائك الفضة . وكانت بلاد أجدادك – يا مولاى – غنية بالتجارة والزراعة . فلم يكن أهلها يزرعون الوديان والسهول المنبسطة فحسب ، بل كانوا كذلك يزرعون سفوح الجبال ، بعد أن تمكنوا من خزن المياه – مياه الأمطار والسيول – فى خزانات أرضية واسعة ، تخرج منها قنوات حفروها لتوصل المياه إلى البقاع البعيدة ، وإلى سفوح الجبال . وأما الحضارة فمنها المعمار ، وكان لهم فيه قدم راسخة . فقد بنوا الحصون والمعابد ، والمدن ، والقصور ، وسدود المياه ، وما قصر غمدان إلا تحفة من المعمار يفوق فى جماله وسعته كل ما عرف من القصور .

وابتسم النعمان وقال :

– وهل كان يفوق الخورنق ؟

فقال الراوية :

– لقد بالغ الرواة في وصفه ، يا مولاى ، وقالوا عنه : « إنه كان عشرين طبقة بعضها فوق بعض ، وارتفاع كل طبقة عشرة أذرع . وإن بانيه لما بلغ غرفه العليا أطبق سقفها برخامة واحدة شفافة ، حتى لقد كان الناظر إلى السماء من أيّ غرفة علوية يرى النجوم والقمر في الليالى المقمرة .

– مجدٌ ضاعَ ، وعز زال ، وكلُّنا إلى زوال .

ووقف أحد الحاضرين ، وانحنى راكعاً ثم انتصب وقال :

– إن مجد آبائك وأجدادك ، أبيت اللعن ، لم يزل ولن يزول فهو فى ملكك وبلادك قائم باق . ولك العز والبقاء .

ولم يلتفت النعمان إلى المتحدث أو يهتم بما قال ، بل اتجه إلى الراوية وقال :

– زدنى من حديث جدودى ، ومجدهم الضائع فى الذكرى عظة .

قال الراوية :

– وكان سدّ مأرب ، يا مولاى ، آية فى الهندسة والبناء ، فقد كانت الأمطار – كعادتها – تهطل فى الصيف عندهم ، وكانت من الكثرة بحيث تصير سيولا جارفة تكتسح أمامها كل شيء . فإذا ما انتهى

فصل المطر جفت الأرض ، وجف الزرع ، وظمئ الناس وظمئت الدواب . فبنوا من الحجارة حائطاً ضخماً عند مدخل أكبر الاودية ، حيث تسقط الأمطار بكثرة وتندفع السيول من الجبال . واستطاعوا بذلك أن يحجزوا المياه خلف هذا الحائط الذى كان طوله ثمانمائة ذراع ، وسمكه خمس عشرة ذراعاً، وارتفاعه بضع عشرة ذراعاً . وكانت به منافذ ينصرف منها الماء إلى المجارى والقنوات ، فتسقى المزارع والبساتين . وكانت هذه المنافذ تقفل ببوابات من الخشب . فعم بذلك الخصب والرخاء حتى صارت فواكه اليمن مضرب الأمثال .

قال النعمان :

ــ لقد طوى التاريخ كل هذا ، فلم يبق منه إلا أثر بعد عين . مجد ضاع ، وعز زال ، وكلنا إلى زوال .

وتنحنح الراوية ، وهم بالكلام . ولكن قبل أن ينطلق بكلمة تقدم عصام الحاجب من النعمان فركع بين يديه ، وهمهم بكلمات لم يسمعها إلا النعمان . وهنا ضرب النعمان متكأ الكرسى الذى كان يجلس عليه بيده اليمنى ، ودفع برأسه إلى الخلف ، وقال بصوت ثائر :

ــ ويلٌ للخونة . لقد فعلتها العاهر !

وكان النعمان إذا ضرب متكأ كرسيه بيده اليمنى فى غضب فإن هذا دليل على أن حادثاً لا يرضاه قد وقع ، وكان هذا وحده إيذاناً بانتهاء

المجلس . فهم الحاضرون بالانصراف ؛ كلّ يتقدم بين يدى النعمان، وينحنى انحناءة الركوع قائلا : عم مساء ، أبيت اللعن ، ثم يرجع خطوات إلى الخلف ، ويخرج .

هكذا انصرف الحاضرون ، ولم يبق منهم إلا الوزير عيلان ، الذى قام من كرسيه ، وتقدم نحو النعمان ، وأشار إلى عصام الحاجب فحضر ووقف بجواره، فسأله :

ــ أى خبر ذكرت لمولاى ؟

قال عصام :

ــ إن الحراس قد اكتشفوا أن الأسيرة الرومية، التى تزعم أنها أميرة فارسية واسمها شاهناز ، قد اختفت من القصر ، واختفى معها القائد حسام الذى جاء بها من حدود الروم . ويقول بعض الحراس إنهم رأوهما يهربان فى ظلام الليلة الماضية، متجهين نحو نهر دجلة بعد أن عبرا الفرات . وأغلب الظن أنهما ذهبا إلى المدائن . فقد كانت الشبهة تحوم حول تلك الأسيرة وحول القائد نفسه .

قال النعمان فى صوت ثائر :

ــ لقد كانت تلك العاهر نذير شؤم منذ أن قدمت إلى بلادنا . ولم أطمئن إليها قط . وكنت أشعر دائماً أن فى أسرها خفياً سرّاً ، أما ذلك الخائن فلعله واحد من جواسيس زيد بن عدى . وقد هرب لينضم إليه ، ويحمل

obeikandl.com

إليه أخبارنا . يا عصام . أخبر رئيس الحرس ليبعث بفرقة الفرسان وراءهما فلعلهم يقبضون عليهما .

وخرج عصام . وسادت فترة صَمت عاد بعدها عصام ، وتقدم من النعمان يقول :

ــ الأمير صاحب بالباب يا مولاى .

قال النعمان :

ــ دعه يدخل .

وانفتح الباب فدخل الأمير صاحب فى ثياب التجار ، وركع أمام النعمان وقبل يده ، وقال :

ــ لقد وصل هانئ بن مسعود على رأس القافلة . وقد أنزلناه فى الجناح الذى خصص له بالقصر . وأنزلنا رجاله فى منازل التجار القريبة من سوق الحيرة .

فبشّ له النعمان ، وسأله :

ــ أكنت موفقاً فى رسالتك يا صاحب ؟ وهل وجدت بنى بكر راغبين فى محالفتنا .

ــ إنهم أشد ما يكونون لنا وفاء وعهداً . وقد بعثوا بزعيمهم هانئ ليحمل لكم ولاءهم وعهدهم فى الحرب والسلم .

ــ إننا أشد ما نكون الآن حاجة إلى محالفتهم ، ومؤازرتهم . لقد قويت

شيهاتى ، وصرت أكثر اعتقاداً بأن زيد بن عدى يدبر لنا المكايد ، وأن كسرى خسرو متآمر معه على ملكنا وأرضنا . فلا بد أن نتخذ كل حيطة ممكنة ، وأن نبطل تدبيرهم .

والتفت النعمان إلى وزيره عيلان قائلا :

ـ غداً مساء تقام لضيفنا البكرى وليمة التكريم ، ويدعى لها أمراء المناذرة ، وقادة الجيش ، وأعيان المدينة .

ثم التفت إلى الأمير صاخب وقال :

وأنت يا صاخب لتحضره غداً عند الضحى إلى مقصورتى الخاصة فى القصر ، حتى أتحدث إليه فيما يهمنى .

ثم اتجه إلى الوزير عيلان قائلا :

ـ والآن عم مساء يا عيلان .

وإلى الأمير صاخب ، وقال :

ـ وأنت يا صاخب ، ارجع إلى أهلك ، فكن معهم الليلة ، لقد طالت غيبتك عنهم ، عم مساء .

فرد كل من الوزير عيلان ، والأمير صاخب تحية المساء ، وانصرفا .

١٢ ــ أسلحة النعمان وأمواله

كانت الشمس قد ارتفعت كثيراً فوق الأفق ، ساعة الضحى ، عندما جلس النعمان فى مقصورته الخاصة بالقصر ، وكان معه الوزير عيلان، والأمير فيصل والأميرة كوثر . وكان الجميع فى انتظار الضيف العربى الكريم هانئ بن مسعود . وبعد قليل سمعت حركة خارج المقصورة وانفتح بابها ، ودخل منه عربى طويل القوام ، أبيض الوجه مشرقه ، رقيق الأنف، حاد النظرات ، خفيف اللحية ، قد ائتزر بمئزر أحمر من الحرير ، وتدلى من تحت إبطه اليسرى سيف ذو مقبض من الذهب وغمد من الفضة . وعلى رأسه كوفية صفراء وعقال أسود فى وسطه لؤلؤة . وكان هذا العربى هانئ بن مسعود . ودخل معه الأمير صاحب .

قام النعمان وقام معه من فى حضرته ، وعانق النعمان ضيفه الكريم عناقاً طويلا حارًّا . وقدم له من كانوا معه . فتبادل معهم التحيةوعبارات الود .

وبعد أن أديرت كئوس الشراب ، وتحدث النعمان إلى ضيفه عن ذكريات الماضى ، وكان بينهما من لقاء سابق ، قال هانئ :

ــ يا أخا العرب! إن ما بيننا من أواصر الدم ، واللغة ، والحياة ،

والوطن يجعلنا نتحالف فى السراء والضراء . ولقد كانت بلادى منذ أن قدم أجدادنا من اليمن مفتوحة الأبواب لقبيلة بكر بن وائل ؛ قوافلكم تفد بالتجارة إلى أسواقنا ، ودوابكم ترد مياهنا ومراعينا . وكنا وإياكم دائماً فى سلم وولاء .

وقد بلغنى أن زيد بن عدى يدس لى وللأسرة المناذرة عند كسرى خسرو أبرويز . وهو يزعم أن العُبَّاد هم أصحاب هذه البلاد، وسكانها الأوائل قبل أن يفد أجدادنا من اليمن، وأخشى أن ينجح فى دسه ، فتقوم بيننا وبين فارس حروب .

قال هانئ بن مسعود :

— أعز الله الملك . إن أخوتنا لن تنفصم عراها . وقد كانت صلاتنا فى الرحم ، واللغة ، والوطن ، والحياة المشتركة قوية مكينة . وقد فوضتنى قبيلتى أن أتكلم نائباً عنها ، وعهدت إلى أن أعقد معكم حلف مناصرة فى الحرب والسلم . غير أن بنى بكر — أبيت اللعن — ليس لديهم سلاح يحاربون به إن نشبت الحرب وهم يجودون بأرواحهم عند الحاجة ، ولكن لا بد لهم من سلاح يدافعون به .

ونظر النعمان إلى الرديف عيلان سائلا :

— ماذا ترى يا عيلان ؟

— نبعث لهم بأسلحة من عندنا ، ونجعلها أمانة عندهم . فإن

اضطروا إلى استعمالها فى مناصرتنا كان لهم ذلك . وإن سوينا علاقتنا مع فارس بالسلم كان من الميسور استرداد الأمانة .

قال الأمير صاحب :

— إن لدينا فى المسالح قدراً من السلاح والذخيرة أكثر مما نحتاج إليه الآن . ولا أظن أننا قادمون على حرب مع الروم فى المستقبل القريب . فقد هزم الفرسُ الرومَ منذ شهرين فى معركة حاسمة . والروم مشغولون الآن كذلك بمطاردة الغساسنة . فنحن إذاً نستطيع الاستغناء عن هذا القدر من السلاح والذخيرة .

وسادت فترة صمت قصيرة قال بعدها النعمان :

— لقد دعانى كسرى إلى زيارة المدائن فى الشهر القادم ، للاشتراك فى الاحتفال العسكرى الكبير الذى سيقام تخليداً لذكرى ما أحرزه الجيش الفارسى من نصر ضد الروم . وستكون معى أنت يا صاحب . وسننتهز هذه الفرصة لنطلب من كسرى أن يزوّدنا بقدر جديد من السلاح لتحصين تخوم الروم ، وبذلك نعوض ما نبعث به وديعة عند بكر بن وائل .

وهنا اقترح الرديف عيلان قائلا :

— إن أذن مولاى جعلنا ما سنبعث به من دروع وسيوف وقسى إلى قبيلة بكر ، فى صناديق . فإذا ما حان موعد رجوع القافلة حملت

هذه الصناديق معها ، دون أن يعلم أحد بما فيها . ويكفى أن يقال إنها هداياك – أبيت اللعن – للضيف العربى الكريم .

فقال النعمان :

– رأى صائب وقول سديد .

كان هانئُ بن مسعود ينصت لكل هذا ولا يقول شيئاً . فلما انتهى حديث المناذرة قال :

– وإن شئتم بعثت بنخبة من رجالنا الأشداء ليدربوا مع جنودكم على أساليب الكر والفر ، حتى يكونوا قادة للمحاربين من شباننا عند الحاجة :

والتفت النعمان إلى الأمير صاحب ، وقال :

– لا بأس يا صاحب أن تبحث هذا الأمر مع ضيفنا الكريم . . ثم وضع يده اليمنى على متكأ الكرسى الذى يجلس عليه ، فكانت هذه إشارة إلى انتهاء المجلس . وهم الجميع بالقيام، فقام النعمان،وسار مع ضيفه مودعاً إلى باب المقصورة ، وهو يقول :

– إلى اللقاء هذا المساء ، إلى اللقاء هذا المساء .

• • •

وفى قاعة السمر اجتمع نحو مائتين من أمراء المناذرة ، وقادة الجيش، والوزراء ، والتجار ، والشعراء ، والرواة ، ليرحبوا برجال القافلة

التجارية التى وفدت من ديار بكر بن وائل. وكانت أمسية طويلة امتدت إلى الربع الأخير من الليل. وكان المجلس شعلة من الأضواء المنبعثة من الشموع ، والمنعكسة من اللآلئ التى يحملها الأمراء فى تيجانهم، ومن أغمدة السيوف الذهبية والفضية. وكانت ليلة صاخبة بأصوات الكئوس، وحديث الرواة ، وضحكات المتحدثين ، وأغانى المغنيات ، وعزف الموسيقى .

وأشاع الوزير عيلان فى المجلس أن الملك النعمان قد أهدى إلى ضيوفه من بنى بكر هدايا من الثياب ، والزيوت ، والعطور ، والخمور وأنها تعد لتنقل إلى ديار بكر. وكانت ليلة ملكية انتهت بطلوع الفجر

بقى رجال القافلة من بنى بكر بن وائل موضع الحفاوة والضيافة فى الحيرة حتى رجعوا إلى بلادهم. وكانت إبلهم عند ما غادرت الحيرة قد حملت معها صناديق الهدايا . أما ما فى هذه الصناديق فلا يعرف حقيقته إلا النعمان ورجاله .

١٣ ـ النعمان يسافر إلى المدائن

اطمأن النعمان بهذا التحالف إلى أن ظهره محمىّ . فقد كان لديه جيش ماهر فى الحروب ، يقاوم عند الحاجة ، وصار لديه الآن حلفاء مزودون بالسلاح من السيوف والدروع والقسى والحراب والنبال . ولم يبق إلا أن يذهب إلى المدائن لزيارة كسرى ، وهناك سيحاول إزالة ما خلقه زيد بن عدى من دسائس ، ويعيد جو الصفاء بينه وبين الملك .

بدأت كتيبة من الجيش النعمانى تتهيأ للسفر مع الملك إلى المدائن . وعهد الملك إلى الأمير صاخب بأن يبقى فى الحيرة أثناء غيبته . وأمر أن يصحبه فى هذه الرحلة الأمير حازم ــ رئيس الحرس ــ ليكون رئيساً للفرقة العسكرية . وأعد النعمان من الهدايا لكسرى تحفاً من أسلاب الروم ، دروعاً وسيوفاً من الذهب والفضة ، وعقوداً من لآلىء البحرين ، وجوارى من الروم والحبشة .

ولما تم كل شىء سافر إلى المدائن . غير أنه فى يوم السفر مرض الأمير حازم فاضطر النعمان إلى أن يغير خطته ، فعهد للأمير صاخب بمصاحبته رئيساً لكتيبة الشرف التى ستلازمه أثناء غيبته . ووكل أمر رياسة الحرس النعمانى فى الحيرة للأمير عساف .

كان عرضاً عسكريًّا خالداً ذلك الذى قام به الجيش الفارس فى الساحة الكبرى بمدينة المدائن عاصمة فارس ، واشتركت فيه كتائب من جميع مقاطعات فارس ، كما اشتركت فيه كتيبة الحيرة برياسة الأمير حازم . واستقبل كسرى النعمان استقبالا كريماً ، وأعد له منزلا خاصًّا ، ووكل أمر خدمته إلى واحد من قواد الجيش المقربين منه والذين هم موضع ثقته . وانتهت الحفلات العسكرية والأعياد . ورغب النعمان فى أن يخلو بكسرى ليتحدث إليه منفرداً ، وليعمل على إزالة ما دُبِّرَ ضده من مكايد . ولكن كسرى لم يمكنه من المقابلة ، وكان يعتذر كل مرة بمشاغل هامة . وطالت إقامة النعمان فى المدائن . وبعث إليه كسرى يقول : إنه يرغب فى أن يبقى النعمان هذا الصيف قريباً منه . ويعود إلى الحيرة بعد الصيف إن أراد .

وأحس النعمان أنه لم يعد حرًّا فى حياته ، فجميع من بقصره من الخدم فرس ، وحراسه من الفرس . ولم يكن فى استطاعته أن يغادر القصر الذى نزل به إلا بعد استئذان القائد القائم على أموره . أحس النعمان أنه فى الواقع سجين فى غير بلاده . وانقطعت عنه رسائل مملكته ، وتواردت عليه أخبار متناقضة لم يتبين وجه الحقيقة فيها .

١٤ ــ نهاية المناذرة

هذا ما كان من أمر النعمان بعد أن وصل إلى المدائن فى ربيع سنة ٦٠٢ ميلادية . أما ما حدث لكتيبة الشرف التى صحبته برياسة الأمير حازم فإن كسرى بعث بها إلى حدود الروم لتشترك فى حركة استطلاعية ؛ ولكنها لم تعد للملك النعمان مرة أخرى.

كان هذا يجرى فى فارس على حين صدرت الأوامر من كسرى إلى فرقة الجيش الفارسية ــ دوسر ــ التى كانت تعمل فى الجيش النعمانى أن تعود إلى مدينة الحيرة ، وترابط هناك لتنفيذ ما تتلقاه من ملك الحيرة الجديد الذى هو إياس بن قبيصة الطائى .

كان إياس بن قبيصة هذا من قبيلة طيئ ، وهى القبيلة التى نجح زيد بن عدى فى استمالتها إليه . وعند ما تولى مُلكَ الحيرة فى نهاية سنة ٦٠٢ ميلادية أصدر أمره إلى الفرقة الفارسية ــ دوسر ــ المرابطة فى الحيرة أن تتسلم مسالح الأبراج المحيطة بالقصر النعمانى من الحرس النعمانى ، فتم هذا . وأخذ إياس يبحث عن أسلحة النعمان وأمواله . فعرف أنها أرسلت وديعة إلى قبيلة بكر بن وائل . فأخبر كسرى بذلك .

وجاءت الأوامر من كسرى إلى إياس بن قبيصة أن يسترد من قبيلة

بكر بن وائل هذه الأموال والأسلحة بأية وسيلة . وفكر إياس ، ورأى أن ينتظر حتى ينزل رجال بنى بكر بدوابهم على مياه « ذى قار » . فيكونوا بذلك بعيدين عن مواطنهم، وأميل إلى الاستسلام . ولكن بنى بكر رفضوا تسليم ما عندهم وقالوا: هذه أمانة سلمها إلينا النعمان فلا يتسلمها إلا النعمان.

وقامت «حرب ذى قار » ، وفيها قاد هانئ بن مسعود جيشاً عربياً ، فرّق عليه أسلحة النعمان، وقاد إياس بن قبيصة جنود الفرس والعرب . وثبت العرب فى هذه الحرب ثباتاً عظيماً ، فانهزم الفرس بالرغم من كثرة عددهم . وتعرف هذه المعركة فى تاريخ العرب بيوم « ذى قار » . وقد وقعت فى سنة ٦١٠م .

ويروى أن النبى عليه السلام لما بلغه خبر انتصار العرب على الفرس فى هذه المعركة وهو بمكة — بعد إظهار الدعوة الإسلامية — قال : هذا أول يوم انتصر فيه العرب على العجم .

ودام حكم إياس بن قبيصة من سنة ٦٠٢ إلى سنة ٦١١ . ولم يكن يحكم البلاد مستقلا، بل كان بجانبه «مندوب » فارسى يقيم فى الحيرة هو الحاكم الفعلى .

والواقع أن ملوك فارس ألغوا حكم المناذرة ، وولوا من قبلهم حكاماً من الفرس يخضع لهم زعماء العرب . واستمرت الحال على هذا المنوال حتى

سنة ٦٣٣ م حين استولى عليها جيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد .

أما ما كان من أمر النعمان الثالث بن المنذر – المسمى بأبي قابوس – فيقال إن كسرى أمر به فوضع فى حظيرة الفيلة . وأخذت الافيال تدوسه حتى مات .

وكانت نهاية ذلك الحكم على أيدى حلفائهم من الفرس ، كما كانت الحال مع الغساسنة فى بلاد الشام . فقد أزال ملكهم حلفاؤهم من الرومان .

obeikandl.com

الفهرست

الموضوع	الصفحة
١ ــ الزمان والمكان	٥
٢ ــ النابغة فى مجلس الجدل	١٤
٣ ــ الغساسنة خصوم المناذرة	١٩
٤ ــ النعمان فى مجلس شرابه	٢٦
٥ ــ فن الصيد عند العرب	٣٥
٦ ــ النعمان يخرج للصيد	٣٩
٨ ــ حلم وتشاؤم	٤٤
٨ ــ خطر منتظر	٥٣
٩ ــ تدبير الحيلة	٦٢
١٠ ــ التقرب إلى بنى بكر	٧٠
١١ ــ هانئ بن مسعود يسافر للحيرة	٧٦
١٢ ــ أسلحة النعمان وأمواله	٨٤
١٣ ــ النعمان يسافر الى المدائن	٨٩
١٤ ــ نهاية المناذرة	٩١

obeikandl.com

رقم الإيداع	١٩٩٥/٩٥٧٢
الترقيم الدولى	ISBN 977 - 02 - 5104 - 6

١٠٠/٩٥/٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

obeikandl.com

obeikandl.com